ظاهرة الإسلاموفوبيا

الجذور التاريخية.. والنهايات المنتظرة

الأستاذ الدكتور

محمد عمارة

اسم الكتاب: ظاهرة الإسلاموفوبيا (الجذور التاريخية.. والنهايات المنتظرة)

التأليف: أ. د. محمد عمارة

موضوع الكتاب: دراسة إسلامية

عدد الصفحات: 88

عدد الملازم: 5.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 20 x 14

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2016 / 16410

الترقيم الدولي: 6 - 563 - 278 - 977 -978

١٤٣٨هـ

٢٠١٧م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasherealla@gmail.com

darelbasheer@hotmail.com

www.darelbasheer.com

01012355714 - 01152806533

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الإسلاموفوبيا: هي نزعة الكراهية للإسلام، والتخويف منه، انطلاقًا من تزييف حقائقه الكبرى وصورته الأصلية والأصيلة.

وظاهرة الإسلاموفوبيا، هي ظاهرة غربية، نشأت ونمت وتعاظمت في إطار الحضارة الغربية، وليس في إطار أية حضارة أخرى من الحضارات الإنسانية.. **أي أنها قد عبّرت عن موقف الغرب الحضاري من الشرق الإسلامي إبان صراع الغرب لاحتواء الشرق والهيمنة عليه ونهب ثرواته وتحويله إلى تابع للمركزية الحضارية الغربية.**

ولأن هذه الظاهرة قد نشأت وتبلورت ونمت وتطورت تعبيرًا عن عداء الغرب الحضاري للشرق الحضاري؛ **فإن لها جذورًا تاريخية سابقة على ظهور الإسلام؛ فعداء الغرب الاستعماري للشرق سابق على ظهور الإسلام**، ومن ثم فإن سعي الغرب للهيمنة على الشرق- قبل ظهور الإسلام- قد شهد ظاهرة العداء الغربي للثقافة الشرقية وللمسيحية الشرقية، باعتبارها الهوية الحضارية التي تقف عقبة أمام هيمنة الغرب الإغريقي/ الروماني/ البيزنطي على الشرق، واحتوائه وإذابته في النموذج الحضاري الغربي.

إن الروح السارية في الحضارة الغربية- على امتداد تاريخها منذ جاهليتها اليونانية وحتى الآن- هي روح القوة والصراع؛ ولذلك كان تاريخ هذه الحضارة مع الحضارات الأخرى وخاصة الحضارة الشرقية؛ مليئًا بموجات الغزو والهيمنة والاحتواء.

- عشرة قرون هي عمر الغزوة الإغريقية الرومانية البيزنطية، التي بدأها «الإسكندر الأكبر» (٣٥٦ – ٣٢٣ ق.م) ـ في القرن الرابع قبل الميلاد. والتي امتدت حتى «هرقل» (٦١٠ – ٦٤١م) ـ في القرن السابع للميلاد.

- وقرنان من الحروب الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م) التي قادتها الكنيسة الكاثوليكية، والتي جندت فيها فرسان الإقطاع الأوروبيين، وأموال المدن التجارية الأوبية- البندقية وجنوة وبيزا.

-وخمسة قرون هي عمر الغزوة الصليبية الإمبريالية الحديثة، التي بدأت عقب إسقاط «غرناطة» بالأندلس في ٨٩٧هـ ١٤٩٢م والتي التفت حول العالم الإسلامي، رافعة شعار: «التوابل.. والمسيح»! أي نهب ثروات الشرق الإسلامي، وتنصير المسلمين!. وهي الغزوة التي احتفل الغرب الإمبريالي بذكراها الخمسمائة سنة ١٩٩٢م، بإقامة دورة أولمبية في «برشلونة»- بالبرتغال- التي انطلقت منها هذه الغزوة- قبل خمسمائة عام- بقيادة «فاسكو دي جاما» (١٤٦٩ـ ١٥٢٤م) ويومها بدأ الغرب الإمبريالي حرب «البوسنة»؛ لاقتلاع الإسلام من وسط أوروبا في الذكرى الخمسمائة لاقتلاعه من غرب أوروبا!!. ولقد عبر وزير الإعلام الصربي- يومذاك- عن هذا الوعي الغربي بالإسلاموفوبيا عندما قال: «نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة»!

أي أن التاريخ- البالغ خمسة وعشرين قرنًا- قد شهد سبعة عشر قرنًا من غزو الغرب للشرق، واستخدام الغزو الفكري ضد ثقافة الشرق وديانته؛ لفتح الطرق والأبواب أمام الهيمنة والإذابة والتبعية والاحتواء.

* * *

-١-

حِقبة ما قبل الإسلام

وإذا أردنا إشارات- مجرد إشارات- للجذور التاريخية القديمة لهذه الظاهرة- ظاهرة سعي الغرب لتشويه ثقافة الشرق ودياناته، لتحقيق الهيمنة السياسية والعسكرية والنهب الاقتصادي، فعلينا أن نشير إلى أن الغرب- خلال غزوة القرون العشرة التي سبقت ظهور الإسلام- قد أحلّ ثقافته الهلينية محل الثقافة الشرقية، وكتب اللغات الشرقية بحروفه اليونانية، ومارس كل وسائل الكراهية والتشويه والتزييف والإفساد للمسيحية الشرقية، التي رأى فيها الهوية التي تمثل عقبة كأداء أمام تحقيق مطامعه في الهيمنة والاحتواء. وهو قد مارس كل ذلك في حقبة وثنيته، عندما شن أشرس حروب الإبادة الدينية ضد المسيحية الشرقية، «وفي حقبة تنصره، عندما حاول فرض مذهبه الملكاني على المذاهب الدينية للنصرانية الشرقية.

لقد رأت الوثنية الرومانية في المسيحية الشرقية الخطر الأكبر على استعمارها للشرق، ففي عهد الإمبراطور «سفيروس الإسكندري» (١٩٣ – ٢١٠م) استرابت الدولة الرومانية من الاجتماعات السرية للمسيحيين الشرقيين، وفزعت من رفضهم تقديس الأباطرة، وعبادة آلهة روما، وتقديم القرابين لهم. وكان توحيد المسيحية لله خطرًا بالنسبة للدولة الرومانية الوثنية، خطرًا سياسيًّا على الإمبراطور؛ لأنه يساويه بالعبيد والرعاع، ويسلبه صفة القداسة، التي هي أهم مقومات سلطاته السياسية.

ولقد وصل الاضطهاد الروماني للمسيحية الشرقية الذروة في عهد الإمبراطور «دقلديانوس» (٢٤٥ – ١٣١٣م) الذي أقسم أن تصل دماء المسيحيين المصريين إلى قوائم فرسه!.

ولسنوات عديدة، تحولت البلاد إلى سلخانة للتعذيب، وجز الرؤوس، والإحراق، والإغراق. حتى أن السيوف كلت وفقدت حدتها من كثرة ما جزت من الرؤوس! وحتى أن السيَّافين كانوا يصابون بالإعياء وتخر قواهم من ذبح الآدميين المسيحيين!

ولقد زاد هذا العنف الدموي من تجذر المسيحية الشرقية في قلوب المؤمنين بها، فغدت- بالنسبة لهم- دعوة الخلاص الروحي والمادي من استبداد الرومان ومظالمهم وأصبحت الخندق الأخير في الدفاع عن الهوية الشرقية أمام الغزو الفكري للوثنية الرومانية، التي سلبت الناس دنياهم عندما جعلت البلاد ضيعة للقيصر الروماني، وفرضت على كل مصري أن يدفع ثلاثين ضريبة للرومان، إحداها «ضريبة التنفس بالهواء» إذا ارتفع بنيان المسكن الذي يسكن فيه الإنسان!

وعندما تحولت الدولة الرومانية عن الوثنية إلى النصرانية في عهد الإمبراطور «قسطنطين الكبير» (٢٧٤ - ٣٣٧م) استمرت ظاهرة العداء الروماني للمسيحية الشرقية، ذلك أن مسيحية «بولس»- التي اختارتها الدولة الرومانية- لم تكن هي المسيحية الموحدة التي جاء بها المسيح- عليه السلام-.. وعلى حين استمر التوحيد في المسيحية الشرقية، ممثلًا في «الآريوسية»[١]؛ مارست الدولة الرومانية العداء والإفساد للمسيحية الشرقية، بواسطة «الغنوصية» الباطنية التي استبدلت «الحلول والتجسد» بالتوحيد. وعن طريق التدخل السياسي الإمبراطوري لتحويل الدين من الوحي الإلهي إلى الاختيار الإمبراطوري فغاب إنجيل المسيح، واختارت الدولة أربعة أناجيل من بين ما يقرب من مائة إنجيل كتبت جميعها بعد مئات السنين من عصر المسيح!

(١) انظر دراستنا عن «الآريوسية» في كتابنا (إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات) ص ١٩ -٣٧، طبعة دار السلام - القاهرة ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

وفي مواجهة منازعات المذاهب، التي قامت في الأصول، وليس في الفروع، والتي تركزت حول ذات المعبود وصورته وماهيته. وهي المنازعات التي هددت وحدة الإمبراطورية في مواجهة هذه المخاطر زادت الدولة من تدخلها في صناعة العقيدة الدينية!؛ فحاولت بلورة عقيدة مصنوعة ليجتمع عليها أهل المذاهب المختلفة. ولما لم تستجب مذاهب النصرانية الشرقية لهذا الذي أراده الرومان، مارس المذهب الملكاني العنت والاضطهاد ضد المذاهب النصرانية الشرقية، حتى لقد جرد أهلها من كنائسهم وأديرتهم، وفرض الحظر على عقائدهم وشعائرهم!.. على النحو الذي كانوا عليه في ظل الوثنية الرومانية!.

لقد تبلورت هذه الظاهرة- ظاهرة التشويه والتزييف والعداء الروماني للنصرانية الشرقية- عندما تم تحويل المسيحية الحقة من دين السلام المتصوف والتصوف المسالم إلى هامش، ومجرد قسمة في الطابع المادي للحضارة الغربية ولقد أصاب الفيلسوف المسلم قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥هـ ١٠٢٤م) كبد الحقيقة عندما قال: «**إن النصرانية عندما دخلت روما، لم تنتصر روما، ولكن النصرانية هي التي تروَّمت**»!.

ولقد تم هذا التحول الغنوصي لمسيحية المسيح عندما قرأت الكنيسة الرومانية المصطلحات الرمزية والمجازية في الإنجيل- مثل «الأب» و«الابن»- قراءة مادية، «فجسدت الرمز» و«حققت المجاز»! ثم جاءت في مجامعها الكنسية فجعلت من ذلك التأويل الفاسد مذهبًا وقانونًا للإيمان.

وبعد أن سادت هذه التفسيرات الرومانية للعقيدة المسيحية في الغرب الروماني حملتها هذه الكنيسة ومجامعها إلى الشرق، الذي كان خاضعًا للتسلط السياسي لبيزنطة،

وللهيمنة الفكرية للهلينية،- أي للنموذج اليوناني في النظرة للكون والحياة، ومكونات العقل، ومنظومة القيم، ومعايير السلوك، والعلاقات الإنسانية-. أي أن المسيحية الحقة قد تم تزييفها لتبرير شن الحرب عليها؛ لإزاحتها عن طريق الهيمنة الغربية على الشرق!.

ويشهد اللاهوتي الإيطالي «كيتاني» (١٨٦٩ – ١٩٢٦م) على نتائج التحويل الذي حدث للمسيحية، فيقول: «**لقد أدى ذلك إلى سيادة السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي في الكنائس الشرقية؛ فكانت الثقافة الهلينية وبالًا على الشرق من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور باليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها**. فلما أهلّت آخر الأمر، أنباء الوحي الجديد- الوحي المحمدي- فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب؛ لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل هذه الشكوك التافهة، وقدم مزايا جديدة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي العرب»[١].

لقد حولت الهلينية التوحيد النصراني- الذي دافعت عنه «الآريوسية»- التي تم اضطهادها، حتى جاء الدفاع عن أهلها في رسالة الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى قيصر الروم سنة ٧هـ عندما قال له: «أسلم تسلم يؤتك

(١) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٨٩، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد الوهاب عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين».
حولت الهلينية هذا التوحيد إلى ما يشبه الوثنية التي عبر عنها الفيلسوف الأمريكي «تيلور» (١٧٥٣ - ١٨٢٤م) عندما قال: «لقد غدا الإمبراطور ورجال بلاطه- في النظام الكنسي البيزنطي- صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي، ولم يعد الإمبراطور الحاكم الأعلى والأعظم الدنيوي فحسب، وإنما غدا الكاهن الأكبر كذلك»!

هكذا تبلورت- في إطار الدولة الرومانية- ظاهرة التزييف والعداء والكراهية للنصرانية الشرقية، ومؤسساتها الكنسية، فلما ظهر الإسلام الذي يصفه الفيلسوف الفرنسي «مونتيه» (١٨٥٦ - ١٩٢٧م) بأنه «دين عقلاني الجوهر، بأوسع معاني هذه الكلمة»[٢] تحول الشرق من قلب للعالم المسيحي إلى قلب للعالم الإسلامي. وانتقل قلب العالم المسيحي إلى **أوروبا، التي استدارت لتمارس ظاهرة الإسلاموفوبيا مع الإسلام- بعد أن سبق ومارستها ضد المسيحية الشرقية- لذات الأهداف: إزاحة الإسلام- بعد تزييف صورته- من أمام المقاصد الاستعمارية في احتلال الشرق ونهب ثرواته وإذابة هويته الإسلامية في الطابع المادي للحضارة الغربية، واحتوائه وإلحاقه بالمركزية الحضارية الغربية.**

أي أن ظاهرة الإسلاموفوبيا هي الطور الثاني في الموقف العدواني للغرب تجاه الهوية الحضارية المميزة للشرق، والحامية لاستقلاله عبر التاريخ.

(٢) المصدر السابق ص ٨٩ - ٩٢.

-٢-

الإسلاموفوبيا

وكما كانت الغنوصية هي سلاح الغرب في التزييف للمسيحية الشرقية، كانت هي- أيضًا- سلاحه الأول في ظاهرة الإسلاموفوبيا.

ويشهد على هذه الحقيقة المستشرق الإيطالي «بكَر» (١٨٤٦ - ١٩٣٩م) فيقول: «إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها وتوكيد ذاتها بإزاء الروح اليونانية المجسدة في «الغنوص» يتكرر من جديد في الإسلام في القرون الأولى تحت أسماء أخرى. فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهلينية؛ كان الإسلام في الصدر الأول على العموم معاديًا هو الآخر للروح الهلينية. **والميزة الرئيسية للقرآن هي أنه كان يؤثر تأثيرًا مضادًّا للروح الهلينية في عصر تغلغلت فيه الهلينية، وفي اللحظة التي تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم.** إن المانوية[1] والزرادشتية[2] كانتا بالنسبة للإسلام، عدوتين خطيرتين كالمسيحية. وإن «غنوص» المانوية والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطرًا مباشرًا. لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية في الإسلام- ونعني بها المعتزلة- قد استفادت بعضًا من أصولها ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية. **وفي كل هذه الألوان من الكفاح تكونت جبهة كفاح فريدة في بابها، فالدولة والمذهب الديني الرسمي يسيران هنا، كما يسيران في كل مكان، جنبًا إلى جنب وفي صف واحد، لكنهما في كفاحهما ضد «الغنوص» الذي لا يعترف لأحد بسلطان، يهيبان بالروح اليونانية الحقيقية- (الفلسفة اليونانية) كي تساعدهما. لقد كان الغنوص يحارب الإسلام دينيًّا وسياسيًّا،**

(١) المانوية- نسبة إلى ماني الفارسي (القرن الثالث الميلاد) ـ وهي مذهب يحاول التوفيق بين المسيحية والزرادشتية. ويقول بمبدأين: النور والظلمة.

(٢) هي ديانة زرادشت - نبي الفرس الأقدمين (ت نحو ٨٥٣ ق.م)

وفي هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية، وعنى بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية. فكأن الإسلام الرسمي قد تحالف إذًا مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية ضد «الغنوص»، الذي كان خليطًا من المذاهب القائمة على النظر والمنطق، وعلى مذاهب الخلاص، ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون (١٧٠ – ٢١٨هـ ٧٨٦ – ٨٣٣م) للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية..»[١].

وبعبارة المستشرق الفرنسي «ماسينيون» (١٨٨٣ – ١٩٦٢): **«فإن أصول «الغنوصية» في المرحلة التي تصدت فيها لمحاربة المسيحية الأولى- حتى غبَّشت توحيدها- كانت (سامرية- يونانية).. أي أن الإسرائيليات مع الوافد اليوناني، قد مثَّلا أصول «الغنوصية» في مرحلتها المسيحية. أما في مرحلتها الإسلامية، التي تصدت لمحاولة إفساد عقائد الإسلام، وتجريد حضارته من خصوصيتها الإسلامية؛ فإن أصولها قد كانت- إلى جانب الرافد اليوناني- «مانوية»، أعني آرامية وإيرانية»**[٢].

أي أن «الغنوص» الذي غبّش المسيحية وأفقدها توحيدها، كان هلينيًّا يونانيًّا، أما الإسلام، فلقد تحالف عليه الغنوص الغربي- الهليني- والشرقي- المانوية الآرامية الإيرانية.

وبينما انهزمت المسيحية أمام الغنوص ففقدت توحيدها؛ استطاع الإسلام، بالعقلانية القرآنية، وباستدعاء العقلانية اليونانية- وهي شهادة عقلانية يونانية ضد غنوص الباطنية اليونانية، استطاع هزيمة الغنوص- الإسلاموفوبيا- في هذه المرحلة الأولى من مراحل هذا الصراع.

***

(١) بكر: (وارث ووارث) ـ بحث منشور بكتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ص ٧ – ٩، ترجمة: د. عبدالرحمن بدوي. طبعة القاهرة ١٩٦٥م.

(٢) ماسينيون: (سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران)- بحث منشور بكتاب (شخصيات قلقة في الإسلام) ص ١١ للدكتور عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة ١٩٦٤.

ولقد كانت ظاهرة الإسلاموفوبيا تصعد حينًا وتهبط حينًا آخر، وتبرز وتخبو تبعًا لمراحل اشتداد الغزو الغربي- الفكري والسياسي والعسكري- لعالم الإسلام أو خفة حدة هذا الغزو.

ولقد شارك في هذه الظاهرة:

- بابوات وكرادلة وقديسون- في حقبة الحملات الصليبية وما بعدها.

- وساسة ورجال دين في مرحلة الصراع بين الدولة العثمانية وأوروبا.

- ومفكرون ومستشرقون- يهود ومسيحيون- حاولوا قراءة القرآن بعيون يهودية ومسيحية.

- وأدباء وشعراء، توجهوا بشعرهم وملاحمهم الشعبية إلى الخاصة والعامة لحشدهم في الصراع الغربي ضد العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية.

- كما أسهم في هذه الظاهرة بقسط وافر؛ الساسة الغربيون الذين قادوا موجات الغزو الاستعماري ضد أقطار عالم الإسلام وأمته وحضارته.

وإذا نحن شئنا أمثلة- من المقولات التي كونت دعاوي الغرب والغربيين عن الإسلام- في هذه الظاهرة- فإننا واجدون- على سبيل المثال-:

- قول البابا الذهبي (أوربان الثاني) (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) في تحريض فرسان الإقطاع الأوروبيين على الاتحاد لمحاربة المسلمين في بدايات الحملات الصليبية- بمدينة «كليرمونت»- بجنوبي فرنسا- ١٠٩٥م:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا، لقد آن الزمان الذي تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض؛ **فالحرب المقدسة المعتمدة**

الآن.. هي في حق الله عينه، وليس هي لاكتساب مدينة واحدة بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء؛ فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلِّصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلفين، **وأنتم املكوها لذواتكم**، فهذه الأرض حسب ألفاظ التوراة- تفيض لبنًا وعسلًا. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًّا.

اذهبوا وحاربوا البربر- (يقصد المسلمين!)- لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية- (أي مفاتيح الجنة التي صنعها البابا!)- واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية.. **فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم؛ فالملك الشرقي يكون لكم قسمًا وميراثًا.**

وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدوانًا **من حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا، فاغسلوها بدم غير المؤمنين.**

أي خزي يجللنا وأي عار، لو أن هذا الجنس من الكفار، الذي لا يليق به إلا كل احتقار، والذي سقط في هاوية التعري عن كرامة الإنسان، جاعلًا من نفسه عبدًا للشيطان، قد قدر له الانتصار على شعب الله المختار»!(١)

هكذا أسس البابا الذهبي لصناعة الإسلاموفوبيا فهو قائد «شعب الله المختار» والمسلمون هم «الكفار البرابرة عبدة الشيطان الذين لا يليق بهم إلا كل احتقار، وسيوف فرسان الإقطاع الأوروبيين، مع مفاتيح الجنة- البطرسية- هي السبيل للاستيلاء على الشرق الذي تدر أرضه لبنًا وعسلًا، والذي تشبه خيراته فردوسًا سماويًّا!».

(١) مكسيموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب) المجلد الأول. ص ١٢، ٤. ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

فالتأسيس لتزييف صورة الإسلام وأمته، ولكراهيتهما.. هدفه الاستيلاء على الشرق الإسلامي، ونهب ثروات لحساب الغرب الأوروبي!

ـ وعندما زحف فرسان الإقطاع الأوروبي على الشرق- بقيادة الكنيسة وتمويل المدن التجارية- واقتحموا القدس سنة ٤٩٢هـ ١٠٩٩م- قتلوا وذبحوا وحرقوا وأغرقوا سبعين ألفًا من المسلمين في سبعة أيام!. حتى أن المسلمين «الذين هربوا إلى جامع عمر- (مسجد قبة الصخرة)- ظانين أنهم هناك يحمون ذواتهم من الموت، خاب ظنهم؛ لأن الصليبيين- خيالة ومشاة- دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك حتى استوعب الجامع من الدم بحرًا متموجًا، علا إلى حد الركب، بل إلى لجم الخيل. وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية من ارقاب (رقاب) الإسلام (المسلمين)»[1].

ولما حل المساء، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك (؟!)- بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر- (؟!)- إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها، وردَّدوا الصلوات- (!!) ثم كتبوا إلى البابا؛ فقالوا: يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا تسبح في دماء الكفار- (أي المسلمين)-!!

ولم يكن فرسان الإقطاع وحدهم هم الذين قاموا بالتطبيق للإسلاموفوبيا وإنما كان معهم رجال الكهنوت. ولقد وصف المؤرخ الأوروبي «ميشائيل درسيرر» ذلك الإسهام الكهنوتي في مذبحة القدس فقال: «**لقد كان البطريرك نفسه يعدو في زقاق القدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة، وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها،**

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ١٧٢ - ١٧٥.

مرددًا كلمات المزمور التالي: «يفرح الأبرياء حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًّا إن للصدّيق مكافأة وإن في الأرض إلهًا يقضي- (المزمور/ ٥٨: ١٠ -١١) ثم أخذ البطريرك في أداء القدّاس، قائلًا: إنه لم يتقدم للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضي الرب»![١]

ـ ولجذب الغوغاء والدهماء- بالإسلاموفوبيا- إلى هذه الحملات الصليبية، نظمت الملاحم الشعبية، التي أخذ الشعراء الشعبيون في التغني بها في الأسواق.. ومنها «ملحمة رولاند»- التي نظمها القسيس (كونراد) سنة ١٣٠٠م- في «ريجنز بورج» **والتي وصف فيها المسلمين بأنهم: «الشعب الذي لا يُروى تعطشه لسفك الدماء، والذي لعنه رب السماء؛ فهم كفرة وكلاب وخنازير وفجرة وهم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة الذين لا يستحقون إلا أن يقتلوا وتطرح رممهم في الخلاء، فهم إلى جهنم بلا مراء!. إن أولئك جميعًا دون استثناء..حزب الشيطان اللؤماء، خسروا الدنيا والآخرة، وحل عليهم غضب الله، فبطش بهم روحًا وجسدًا، وكتب عليهم الخلود في جهنم أبدًا»![٢]**

وهكذا أججت نزعة الإسلاموفوبيا حروب الحملات الصليبية، التي غدت مصدرًا للغنى والثراء، وسبيلًا للاستعمار الاستيطاني، الذي أقامه الغرب الصليبي في الشرق الإسلامي، والذي أشار إليه المؤرخ ورجل الدين الغربي- مكسموس مونروند- بقوله: **«إن الكثير من الأشراف والعظماء الصليبيين صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لاحتشاد- (جمع)- الأموال والغنيمة، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم كان يجذب الجيش إلى المحاربة»**[٣].

(١) د. سيجزيد هونكة (الله ليس كذلك) ص ٥٣. ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة دار الشروق، القاهرة ١٩٩٥م.
(٢ المصدر السابق ص ٤٤.
(٣) (تاريخ الحرب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب) المجلد الأول، ص ١٧٦.

ـ ولقد أسهم الراهب «بطرس الناسك» (١٠٥٠ – ١١١٥م) في إشاعة هذه النزعة- نزعة الإسلاموفوبيا- بنصيب ملحوظ، بل لقد تحول إلى ظاهرة تحشد الدهماء والرعاع بثقافة الكراهية السوداء للإسهام في الحملات الصليبية الساعية لاحتلال الشرق، وطي صفحة الإسلام من الوجود!.

ـ ولقد أشار المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» (١٩١٥ – ٢٠٠٤م) إلى الصورة الزائفة التي صنعتها ثقافة الإسلاموفوبيا لرسول الإسلام ﷺ «عندما أطلق الكتاب اللاتين العنان لجهل الخيال المنتصر؛ إرضاءً للعامة، **فكان محمد- في عرفهم- كما جاء في كلمات «ر. وسانر»- ساحرًا، هدم الكنيسة في أفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية. وكان محمد- في عرف تلك الملاحم- هو صنمهم الرئيسي. وكان معظم الشعراء الجوّالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة- (البدو)- وكانت تماثيله (حسب أقوالهم) تصنع من مواد غنية، وذات أحجام هائلة.**

لقد اعتُبر الإسلام في العصور الوسطى نوعًا من الانشقاق الديني، أو هرطقة ضمن المسيحية، وهكذا رآه «دانتي» (١٢٩٥ – ١٣٢١م).»[(١)].

ـ وتحدث المستشرق الإيطالي «فرنشسكو جابرييلي» (١٩٠٤ – ١٩٩٧) عن هذه الصورة التي أسست لمخزون ثقافة الكراهية السوداء- الإسلاموفوبيا- في الوجدان الغربي- فقال: «لقد كانت العصور الوسطى الغربية تنظر إلى ظهور الإسلام وانتشاره باعتباره تمزقًا شيطانيًّا في صدر الكنيسة المسيحية التي لم يكد يمر على انتصارها على الوثنية ثلاثة قرون» وانشقاقًا مشئومًا قام به شعب بربري»!(٢)

(١) رودنسون: (الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية) ـ بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام)، بإشراف «شاخت» و«بوزورت» ـ القسم الأول ـ ص ٢٧، ٢٨. ترجمة: د. محمد زهير السمهوري، مراجعة: د. شاكر مصطفى، طبعة عالم المعرفة ـ الكويت ـ ١٩٧٨م.

(٢) فرانشسكو جابرييلي: (الإسلام في عالم البحر المتوسط) المصدر السابق. ص ١٠٤، ١٠٥.

ـ وتحدث المفكر الألماني «هوبرت هيركومر» عن هذا الزيف الـذي صنعه الخيال الصليبي المريض لرسول الإسلام- صلى الله عليه وسلم- فقال: «**إن الأوروبيين ادّعوا أن رسول الإسلام كان كاردينالًا كاثوليكيًّا، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة في الشرق انتقامًا من الكنيسة. واعتبرت أوروبا المسيحية- في القرون الوسطى- محمدًا المرتد الأكبر عن المسيحية، الذي يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية**»[١].

ـ ولقد شارك في صنع هذه الصورة الزائفة والغريبة والعجيبة- بل والمثيرة للسخرية- عن الإسلام ورسوله ﷺ وعن المسلمين وحضارتهم، كبار القديسين وعظماء القادة في المسيحية الغربية.

فالقديس «توما الأكويني» (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) ـ وهو الفيلسوف الأكبر للكاثوليكية في العصور الأوروبية الوسطى، يقول عن رسول الإسلام ﷺ:

«**إنه هو الذي أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة في التوراه والأناجيل، من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون في البادية**»![٢]

و«مارتن لوثر» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)- زعيم الإصلاح المسيحي ورأس البروتستانتية- يصف القرآن الكريم بأنه: «**كتاب بغيض وفظيع وملعون وملئ بالأكاذيب والخرافات والفظائع**»، **معتبرًا أن** «**إزعاج محمد والإضرار بالمسلمين يجب أن تكون المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرّف المسيحيين عليه، وأن على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوي إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم في هذه الحروب**»![٣]

(١) هوبرت هير كومر (صورة الإسلام في التراث الغربي) ص ٢٣، ٢٤. ترجمة ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة. طبعة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٩٩م.
(٢) المصدر السابق ص ٣٢، ٣٣.
(٣) المصدر السابق ص ٢١.

هكذا أعلنها «مارتن لوثر» صريحة- بل وعارية- أن ترجمة القرآن ليس هدفها التعرف عليه، وإنما «إزعاج محمد، والإضرار بالمسلمين»!. وأن الهدف من صناعة الصورة الزائفة عن الإسلام ورسوله وأمته هو تقوية إيمان المسيحيين؛ كي تتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب الصليبية، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم في هذه الحروب!.

وهذه الأهداف هي التي لا تزال قائمة حتى الآن في ظاهرة الإسلاموفوبيا، بالواقع الذي نعيش فيه!.

ـ ولقد سار في هذا الطريق- طريق صناعة الصور الزائفة للإسلام والمسلمين- كبير شعراء النهضة الأوروبية «دانتي» (١٢٩٥ - ١٣٢١م)- صاحب (الكوميديا الإلهية)- **فوضع رسول الإسلام ﷺ وعلي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- «في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات جهنم، وقد قطعت أجسامهم، وشوهت أجسادهم، في دار السعير، لأنهم كانوا في الحياة الدنيا ـ (بكذبه وافترائه) ـ أهل شجار وشقاق»!**[(١)]

ـ ولقد شهدت المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» (١٩١٣ - ١٩٩٩م) على هذا الزيف الذي صنعته ظاهرة الإسلاموفوبيا للعرب والمسلمين والإسلام، وكيف «**استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين الازدراء الأحمق الظالم للعرب، الذي يصمهم جهلًا وعدوانًا بأنهم «رعاة الماعز والأغنام، الأجلاف، لابسوا الخرق المهلهلة وعبدة الشيطان، ومحضّرو أرواح الموتى، والسحرة، وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، والذين حذقوا هذا الفن، واستحوذ عليهم الشيطان. تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين، وقد تربع على عرشهم الذهبي «ماهون»- محميد- وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية يذبحها أتباعه قربانًا وزلفى إليه»**»!

(١) انظر دراستنا عن «الآريوسية» في كتابنا (إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات) ص ١٩ -٣٧، طبعة دار السلام - القاهرة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(١) صورة الإسلام في التراث الغربي.

ـ ولقد وصف «جي توينبي» (١٨٨٩ – ١٩٧٥) العرب– في كتابه (دراسة في التاريخ العلمي) سنة ١٩٤٩م– بأنهم «**غير متحضرين وخلق غريب مستبعد من العالم الهلليني، والمتطفلين على الحضارة الهلينية الإغريقية، أولئك المحمديون البدائيون، وأقصى القول فيهم: إنهم تقليد بربري جاهل زائف لديانة السريان الغريبة عنهم، وهم– لبدائيتهم وقصورهم– لا يسعون إلى اعتناق النصرانية!.**».

ـ كما صورهم «وليام»– من سالبري– «**بأنهم يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين»!؛ فهم «الكفرة الفجرة» الذين لا يدينون بالمسيح أو الله؛ لأنهم لم يعبدوه بعد، على أنه في الإمكان تنصيرهم فهم ليسوا سوى ديدان حقيرة وسفلة أوغاد أعداء الله وأعداء المسيح مستبيحو قبر المسيح»!**[١]

ـ ولقد صورت الكنيسة الأوروبية رسول الإسلام ﷺ ساحرًا كبيرًا. وصورت «قرطبة»– في الأندلس– وطن عباد الشيطان، المتوسلين بالموتى، الذين قدموا لمحمد الصنم الذهبي الذي كانت تحرسه عصبة من الشياطين تضحية بشرية!

فبلاد الإسلام هي عالم الخرافات والأساطير، عبدة الشيطان، والسحرة المتضرعين إلى الشيطان. بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهبي، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين، اسمه محمد»![٢]

***

هكذا زيف الغرب الصليبي صورة الإسلام والمسلمين وأسس صناعة الإسلاموفوبيا؛ ليرسخ في أعماق الشعوب الأوروبية ثقافة الكراهية السوداء للإسلام وقرآنه ورسوله وأمته وحضارته، وهي الثقافة التي شاعت في كتبه المدرسية، وفي آدابه وملاحمه الشعبية، والتي ظلت كامنة، تبعثها

(١) (الله ليس كذلك) ص٨، ١١، ١٤، ١٩، ٢٣.
(٢) سيجريد هونكة (العقيدة والمعرفة) ص ٩٩، ١٦، ١٦٢. ترجمة: عمر لطفي العالم. طبع دمشق ١٩٨٧م.

وتفجرها الأحداث التي تطرأ على علاقة الغرب بالشرق بين الحين والحين.

صنع الغرب الصليبي ذلك «لتقوية إيمان المسيحيين كي تتضاعف جسارتهم وبسالتهم وليضحوا بأموالهم وأنفسهم في الحرب ضد المسلمين»!.. وفق تعبير «مارتن لوثر».

وللاستيلاء على الشرق، الذي تدر أرضه لبنًا وعسلًا، والذي تشبه خيراته فردوسًا سماويًّا!.. بتعبير البابا الذهبي «أوربان الثاني» مفجر الحروب الصليبية التي دامت قرنين من الزمان ـ (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ – ١٢٩١م).

-٣-

دور الاستشراق في الإسلاموفوبيا

لقد كان الدكتور عبد الرحمن بدوي (١٣٣٥ - ١٤٢٣هـ ١٩١٧ - ٢٠٠٢م)ـ بشهادة مؤلفاته ومترجماته وتحقيقاته- من أكثر العلماء والمفكرين العرب المعاصرين خبرة بالفكر الغربي ومن أكثر هؤلاء العلماء والمفكرين إحاطة بما كتبه المستشرقون عن الإسلام. ولقد توَّج معارفه وخبراته بالاستشراق والمستشرقين بالموسوعة التي نشرها عنهم- (موسوعة المستشرقين)- بل لقد مثلت حياته الفكرية «مؤسسة» قامت على تعريف العقل العربي والمسلم بتراث الاستشراق والفلسفة الغربية. وذلك فضلًا عن علاقاته الوثيقة بكثير من رموز الاستشراق، الذين درس على أيديهم، وتتلمذ على كتاباتهم، وبادلهم الأفكار والآراء.

لذلك؛ كان الرجل شاهدًا خبيرًا على ما كتبه هؤلاء المستشرقون عن الإسلام وأصوله ومقدساته. وفي السنوات الأخيرة من حياته- والتي قضاها في الغرب- وباريس خاصة- وعندما رأى تصاعد ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، وتزايد حملات الكراهية للإسلام، والافتراء على رموزه ومقدساته، استدعى- بخبرته العلمية والفكرية والثقافية- الجذور الغربية القديمة لهذه الظاهرة، ولم يرَ فيها- كغيره من أصحاب النظرة السطحية- ظاهرة إعلامية طارئة، وإنما رآها امتدادًا متطورًا وحديثًا لافتراءات كثير من المستشرقين والمَنَصِّرين- وخاصة اليهود منهم- على الإسلام ومقدساته ورموزه؛ فكان تصديه المتميز لهذه الظاهرة بتفنيد مقولاتها التاريخية ضد القرآن الكريم، وضد رسول الإسلامﷺ وهو الإسهام الذي ختم به حياته الفكرية عندما نشر-

بالفرنسية- كتبه: (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) و(دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره) وترجمته الفرنسية للسيرة النبوية- سيرة ابن هشام.

وفي الكتاب الأول يعلل أسباب أخطاء- بل وخطايا- الاستشراق إزاء القرآن الكريم؛ بتسليط الأضـواء على جذور هذه الأخطاء والخطايا، وأسباب هذه الافتراءات المتمثلة في أن هؤلاء المستشرقين لم يقرأوا القرآن بعيون علمية موضوعية، وإنما قرأوه بعيون يهودية أو مسيحية، توجهها تحيزات ونوايا سيئة وفي ذلك قال:

«لقد قرأ المستشرقون اليهود- من أمثال «**هير شفيلد**» **(١٨٥٤ – ١٩٣٤م) و**«**جولد تسهير**» **(١٨٥٠ – ١٩٢٠)** «**و**»**هور فيتز**» **(١٨٧٤ – ١٩٣١م) و**«**توري**»**- القرآن قراءة يهودية. وآخرون- من أمثال** «**موير**» **(١٨١٩ – ١٩٠٥م) و**«**بيل**» **و**«**آرتر**»**- قراءة مسيحية، أو يهودية مسيحية»**.

ولقد جاء كتاب الدكتور بدوي هذا «وثيقة موثقة»، تثبت هذه الحقيقة، وتفند الزيف الذي افتراه هؤلاء المستشرقون على القرآن الكريم، ومن ثم تعري هؤلاء المستشرقين من الهالات التي أحاطتها بأسمائهم وكتاباتهم آلة (العلاقات العامة التغريبية)!.

فهؤلاء المستشرقون- على سبيل المثال- قد ذهب بهم الكذب «**فأكدوا أن محمدًا ﷺ باعتباره مؤلفًا للقرآن، قد اقتبس أغلب القصص وعددًا كبيرًا من الصور البيانية، وكذلك الحِكَم والأمثال من الكتب المقدسة، أو شبه المقدسة، لدى اليهود والنصارى**».

ويعلق الدكتور بدوي على هذه الفرية؛ فيقول:

«ولكي نفترض صحة هذا الزعم؛ فلابد أن محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه

مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود والأناجيل المسيحية ومختلف كتب الصلوات وقـرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الأدباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية!!.

واعتراض ساقط آخر مما قاله هؤلاء الكتاب، وهو يعتمد على الصياح بالقول إن في القرآن انتحالًا. ويحدث ذلك عندما يذكر القرآن حقيقة عامة ذكرت في الكتب المقدسة اليهودية والنصرانية قبل ذلك، وكأنه يجب على القرآن الكريم حتى يكون بريئًا من أي انتحال أن يقول أشياءً مخالفة للعلم العام أو الإرشاد»!

ولقد تتبع الدكتور بـدوي جـذور هذه الافـتراءات الاستشراقية على القرآن الكريم، متناولًا أشدها وأشهرها بالنقد والتفنيد؛ فقال- على سبيل المثال-:

«إن أشد الكتب هجومًا على القرآن والإسلام هو كتاب (عالم النص القرآني) الذي كتبه «وود فيجو مراش» (١٦١٢ – ١٧٠٠م) وهو عمل حافل بالأخطاء والمجادلات الساذجة اللامعقولة. وللأسف تكررت نفس هذه الأخطاء وهذه التجاوزات في كل الدراسات المتصلة بالقرآن، والتي قام بها المستشرقون الأوروبيون خلال القرنين التاليين لظهور كتاب «مراش».

حقًّا، فإنه بداية من منتصف القرن التاسع عشر يبذلُ هـؤلاء المستشرقون ما في وسعهم ليُبدوا موضوعيين في كتاباتهم، وفي جعل كتاباتهم أكثر دلالة وأكثر جدية وموضوعية، وأكثر تدقيقًا في المنهج اللغوي، لكن دون فائدة؛ **ذلك لأن الدوافع الداخلية التي تضطرم بالحقد في قلوبهم ضد الإسلام وكتاب الإسلام المقدس ونبي الإسلام ظلت كما هي، بل زادت تأججًا.**

وبرغم أن هؤلاء الكتاب قد توفرت لهم أدوات فهم اللغات منذ بدايات القرن (التاسع عشر) حتى يومنا هذا، إضافة إلى توافر نشر المخطوطات؛ إلا أنهم أصروا على تقديم نظرياتهم الخاطئة من خلال تصوراتهم الزائفة للقضايا الوهمية التي طرحوها حول القرآن، وطرحوا نتائج زائفة توصلوا إليها.

إن معرفة هؤلاء المستشرقين للغة العربية من الناحية الأدبية أو الفنية يشوبها الضعف، ويمكن القول إن هذه الملاحظة تخصهم جميعًا تقريبًا.

وإن معلوماتهم جميعًا مستقاة من مصادر عربية جزئية ناقصة وضحلة وغير كافية، وهم يرمون بأنفسهم في مغامرة طرح فرضيات خطيرة وخاطئة، يعتقدون أنهم أول من توصلوا إليها دون تكليف أنفسهم عناء التقصي لدى تلك المصادر عن نفس المعضلات التي يثيرونها، إذ تطرق الكتّاب المسلمون في حقيقة الأمر لهذه الفرضيات واعترضوا عليها.

إن ما يحرك بعض المستشرقين دافع الضغينة والحقد على الإسلام، مما يفقدهم الموضوعية ويعمي بصيرتهم بطريقة أو بأخرى.

لقد كان بعض من هؤلاء المستشرقين مدفوعًا بالتبشير والتعصب المتحفز.. مثل «وليم موير» (١٨١٩ = ١٩٠٥م) و»زويمر» (١٨٦٧ - ١٩٥٢م). كما وقع بعضهم ضحية هَوَس مرضي سببه ذلك التعصب الأعمى المختلط بالزهو والغرور. ومنهم من يختلق أكذوبة ويصبح ضحية لتلك الأكذوبة، وهو مجبر أن يوضح بكل الوسائل حقيقة أكذوبته المزعومة.

وهدفنا هو كشف القناع عن العلماء المزعومين الذين قدموا الضلال والخداع لشعب أوروبا ولغيره من الشعوب الأخرى.».

ثم عرج الدكتور بدوي على مزاعم المستشرق اليهودي الأشهر «جولد تسيهر» (١٨٥٠ – ١٩٢٠) الذي زعم أن القرآن نقل عن أسفار العهد القديم الكثير من عقائد الإسلام وأركان الإسلام؛ فلقد زعم هذا المستشرق أن إله الإسلام هو إله إسرائيل وأن الصوم الإسلامي هو الصوم اليهودي، وأن اتخاذ الرسولﷺ بيت المقدس قبلة أولى ما كان إلا تقربًا إلى اليهود، وأن رسول الإسلام ليس إلا ناقلًا عن العهد القديم. وفي ذلك قال:

١- «إن المفهوم التوحيدي للإله الذي عارض به محمد الوثنية العربية يتفق في مادته مع مفهوم التوحيد في العهد القديم» ويفند الدكتور بدوي هذا الزعم؛ فيقول:

(أ) هذا الزعم خاطئ؛ لأن **إله العهد القديم هو فقط إله إسرائيل، وإسرائيل اختارها الرب، بينما إله الإسلام على عكس ذلك هو ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢) دون تفرقة شعب عن شعب، ولم يصطفِ شعبًا بوجه خاص.**

(ب) وإله إسرائيل هو الأب بينما إله الإسلام (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) (الإخلاص: ٣). فالتوحيد اليهودي هو توحيد قومي، أما التوحيد الإسلامي فعالمي.

٢- الصوم اليهودي والصوم الإسلامي:

ويزعم «جولد تسيهر»، ومن بعده «فنسنك» (١٨٨١-١٩٣٩م) أن محمدًا قد أخذ الصوم عن اليهودية. وهذا قول خاطئ؛ لما يلي:

(أ) الصوم الإسلامي يستغرق شهرًا كاملًا هو شهر رمضان، وليس يومًا واحدًا، أو يومًا وليلة، كما هو الحال عند اليهود.

(ب) الصوم الإسلامي ليس مرتبطًا بأية أحداث في التاريخ الإسلامي ولا أية نكبات قد حلت بالمسلمين، ولكنه ركن أساسي من أركان الإسلام الخمسة، وشعيرة أصلية، وعلى عكس ذلك فإن الصوم اليهودي صوم ثقافي وليس مفروضًا إلا حين تتعرض الأمة للاضطهاد، وليس عندما تعيش في سلام. ثم إن الصوم كشعيرة دينية كان موجودًا في كثير من الأديان التي سبقت اليهودية. وما دام الصوم كان يمارس قبل ظهور اليهودية بآلاف السنين، فبأي حق يدعي «جولد تسيهر» أن محمدًا أخذه عن اليهودية كما لو كانت اليهودية هي أول من اخترع الصوم، ولكنه دومًا نفس الابتسار ونفس الفكرة المتسلطة هي التي جعلته يرى ذلك هو ومن على شاكلته من اليهود.

٣ – القبلة:

ويزعم «جولد تسيهر» أن محمدًا جعل بيت المقدس قبلة في الصلاة أولًا ليكسب مودة اليهود ولما لم يحصل على تأييد اليهود غيَّر القبلة متجهًا إلى البيت الحرام في مكة.

وهذا الرأي شائع عند كثير من المستشرقين، أمثال «فييل» و»موير» (١٨١٩ – ١٩٠٥م) و»جريم» (١٨٦٤ – ١٩٤٢م) و»ليون كيتاني» (١٨٦٩ – ١٩٢٦م) و»فربوهي». وهو رأي يفتقر إلى الأسس السليمة؛ **فالسبب الذي من أجله توجه محمد– صلى الله عليه وسلم– إلى المسجد الأقصى خلال العهد المكي، هو أن الكعبة لم تكن قد طهرت من الأصنام، أو كادت؛ ولذلك كان المسجد الأقصى هو أنسب قبلة.**

وبعد كشف هذا الزيف، وتجريد «جولد تسيهر» من الهالة العلمية التي أحاطوه بها؛ عرج الدكتور بدوي على زعم آخر شارك فيه عدد كبير من المستشرقين وهو الادعاء بأن القرآن قد خلط بين مريم– أم عيسى– عليهما السلام– وبين مريم

أخرى- هي أخت موسى وهارون- عليهما السلام- جاهلًا ومتجاهلًا ما بينهما من قرون!

«فلقد زعم «جريم» (١٨٦٤ - ١٩٤٢(و»هورفيتز» (١٨٧٤ - ١٩٣١م) و» فنسنك» (١٨٨١ - ١٩٣٩م) و»بلاشير» (١٩٠٠ - ١٩٧٣) و»جود فروا ديمومبين» (١٨٦٢ - ١٩٥٦م) و»باريت»؛ أن القرآن قد خلط بين مريم- أم عيسى- وبين أخت هارون وموسى ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾- مريم: ٢٨.

بينما هذه العبارة القرآنية لا تعني سوى «يا سليلة هارون» فالاتهام بالزنا، الذي رمى به اليهود مريم أم المسيح أصبح أكثر شناعة قياسًا إلى أنها من عائلة مقدسة. ويؤكد «لوقا» هذا النسب؛ لأن مريم قريبة الياصابات أم يوحنا المعمدان. كما يؤكد «هيوليت» أن الياصابات بنت خالة مريم، كما تؤكد المصادر المسيحية هذه القرابة.

وبهذه الطريقة فهمه يهود ونصارى المدينة في الجزيرة العربية.

ومن وجهة النظر اللغوية، فإن استعمال أخ أو أخت أو يا أخا أو يا أخت وبعدها اسم عشيرة أو قبيلة أو بلد يكون بمعنى يا سليل هذه العشيرة أو هذه القبيلة أو البلد، وهو استعمال كان وما يزال شائعًا في تاريخ اللغة العربية، وقد أشار إليه الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ه ٨٣٩ - ٩٢٣م)، وتبعه كثير من المفسرين المسلمين، وقد ذكر لذلك أمثلة عديدة.

وهذه الحجة القاطعة تبعها «جورج سال» (١٦٩٧ - ١٧٣٦م) في الترجمة الإنجليزية للقرآن سنة ١٧٣٤م، فأكد أن من المستحيل أن يقع القرآن في هذا الخلط بين مريم أم عيسى ومريم أخت موسى وهـارون؛ لأن هذه الفارقة تكون- حسب هذه الألفاظ- متعارضة مع كثير من

المواضع القرآنية، ويبدو فيها محمد على دراية تامة بأن موسى يسبق عيسى بعصور عديدة.

لذلك كان من الغريب أن نجد أصحاب هذا الزعم يكررون نفس الاتهام دون أي دليل ودون أن يتحملوا عناء مناقشة الحلول التي اقترحها المفسرون المسلمون وأيدها بعض الكتاب الأوروبيين، أمثال «رولانـد» و»جورج سال». وعندهم أن هذا الاتهام حكم مسبق لا دليل عليه.

ويمكن أن نفهم مثل هذا الموقف من قساوسة ورجال دين ومبشرين، مثل يوحنا الدمشقي، ونيكولاي كوزي، وجود نيولو وغيرهم، لكننا لا نفهمه عندما يتعلق الأمر بعلماء يفترض فيهم الموضوعية وعدم الانحياز!.».

وذهب الدكتور بدوي فضرب الأمثلة على بلوغ مزاعم بعض المستشرقين درجة «العبث»؛ فقال:

«لقد بلغت بعض مزاعم المستشرقين حد العبث. ومن ذلك دعوى «ريتشارد بيل»:

(أ) أن كلمة نبي كلمة مدنية.

(ب) وأن إبراهيم أصبح نبيًّا في المدينة فقط.

(ج) وأن كلمات: إسلام، مسلم، والاستعمال الديني لكلمة أسلم تنتمي إلى العهد المدني.

ولكن هذه القضايا كاذبة؛ لأن كلمة نبي موجودة في السور المكية: الأنعام، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، مريم، الأنبياء، الشعراء، العنكبوت، ص، الشورى، الزخرف، الذاريات، النجم، الأعلى.

وكلمات إسلام، مسلم، (والجمع مسلمون) موجودة في ٢١ سورة مكية، ولو طبقت هذه القاعدة- هذا الزعم- لكان معناها إضافة ٤٤ سورة من العهد المكي إلى العهد المدني. وهذا هو العبث بعينه عند كل الباحثين»!

وأمام محاولات بعض المستشرقين، إعادة ترتيب سور القرآن وآياته؛ قطع الدكتور بدوي بأن الترتيب القرآني- صاحب السياق المعجز- إنما هو صنع إلهي؛ فقال:

«لقد رتب القرآن في كتاب واحد في حياة النبي، والجمع الذي تم في عهد أبي بكر يشبه جمع الوثائق الخاصة بنص معين حتى لا تندثر، وهذا مشابه لما نفعله اليوم بعمل طبعة محققة على مخطوطات كاملة، فنجمعها مع الاستشهادات والأوراق المبعثرة».

وضرب الدكتور بدوي الأمثال على بلوغ بعض المستشرقين حد التعصب الأعمى إزاء القرآن الكريم وذلك من مثل ماكتبه المستشرق «مارتينيو الفونسو فيفالد» الذي قال: «إن كتاب محمد لا ينبغي أن يُقرأ، بل على العكس ينبغي أن يُهان، ويُسخر منه ويُلقى في النيران حتى لا نجده في أي مكان»!!

* * *

وبعد أن فند الدكتور بدوي- عبر فصول كتابه وصفحاته- الزيف الذي ادّعاه المستشرقون اليهود والمسيحيون على القرآن الكريم مبرزًا أخطاءهم وخطاياهم، عندما قرأوا القرآن بعيون يهودية ونصرانية، وبسوء نية مسبقة. لم ينس- وهو العالم الذي تخلق بأخلاق الإسلام وفقه منهاج القرآن ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ (آل عمران: ١١٣)- أن يشير إلى جهود فريق آخر من المستشرقين، لم يحرمهم رفضهم للقرآن والإسلام من الموضوعية التي جعلتهم- وهم على دياناتهم- يشهدون للقرآن والإسلام.

وفي هذا المقام ضرب الدكتور بدوي بعض الأمثلة:

- فالمستشرق «رولاند أدريان» (ت ١٧١٨م) قد تعجب من الافتراءات الاستشراقية الكثيرة على القرآن؛ فكتب يقول:

«إنه لو كان الإسلام كما وصفه هؤلاء المهاجمون المسيحيون الأوروبيون، فليس من المعقول أن كثيرًا من الناس يمكن أن يعتنقوا دينًا عبثيًّا، ولا يمكن أن يفهم أن أتباع محمد كلهم أغبياء، وحمقى، كما أنه ليس مسموحًا لنا أن نشك ونحن نرجع إلى آثار وكتابات هذه الملة، والتي أخرجت عبقريات وعظماء لم يرَ العالم مثيلًا لها في أي شعب آخر، إن لم نقل إن العرب والذين ولدوا بفضل هذا الدين امتلكوا ناصية العلم والفنون الجميلة لقرون عديدة، لا سيما القرن العاشر، بينما ترك المسيحيون كل شيء يذبل ويموت ويتبلد في غربنا.

يجب أن أعترف بكامل اليقين، بعد دراسة عقلانية للديانة المحمدية، أنني وجدت لمحمد وجهًا مختلفًا تمامًا عن الذي قالوه عنه، مما ولّد عندي الرغبة في تعريف العالم به وبالألوان التي تناسبه.

لنتكلم بصراحة، فإننا ليس لدينا عن الدين المحمدي إلا أكاذيب، وهذا ما دفعني لاتخاذ قرار، ليس فقط لقول الحقيقة باختصار فيما يخص (العقيدة)، ولكن أيضًا لتصحيح بعض ما قيل من خطأ في هذا الصدد».

والمستشرق «مراكشي» (١٩١٢ - ١٧٠٠)- الذي قام بترجمة القرآن الكريم- قد كتب في مقدمته لترجمته هذه مقارنًا بين القرآن والإنجيل، ومفضلًا- رغم أنه لاهوتي مسيحي- القرآن على الإنجيل، والإسلام على المسيحية؛ فقال:

«إن الإسلام قد احتفظ بكل ما هو أكثر عقلانية واحتمالًا في المسيحية، وبكل ما يبدو في نظرنا موافقًا لقانون وسنة الطبيعة، وقد استبعد من عقيدته جميع ألوان الغموض الموجودة في الإنجيل، والتي تبدو لنا غير معقولة، وغير مفهومة، كما أنه استبعد من الأخلاق كل المبادئ المتزمتة

والتي يصعب على الناس تطبيقها، مما يجعل الوثنيين اليوم يشعرون أنهم أكثر ميلًا إلى التنكر لوثنيتهم واعتناق الإسلام بصدر رحب، واعتناق الشريعة المحمدية أكثر من الشريعة الإنجيلية.

لقد اعتقدت دائمًا أن القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، يجب أن لا نشك في أن كتاب محمد لا يقدم للعقل أفكارًا يصعب على العقل فهمها.. فمثلًا لا يوجد إلا إله واحد حكيم قدير، خالق الأشياء كلها ومدبرها، ومخالف للحوادث، ويجب أن يُصلَّى له بخشوع، وأن يكون الإنسان متسامحًا مع الفقراء، ويؤدي مناسك الحج، ويطهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة، وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى، فلا يجوز أن يُؤذَى إنسان، بل يجب أن يُحمى من السرقة والقتل والزنا وأي جريمة أخرى أيًّا كانت، ويجب أن يحتقر كل ما في الدنيا باعتباره عابرًا وغير ثابت، ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التي لا يضيع أجرها، وسيكون لنا في النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنجزى على ما فعلنا، فالطيبون سيجدون في السماء نعيمًا مقيمًا وما يشتهون، وسيذوق الأشرار في جهنم عذابًا لا نهاية له.

كل هذه المبادئ وكثير غيرها، تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية.

ومن ناحية أخرى، إذا سمع أحد الوثنيين كلام أحد المبشرين أن الإله الحق الواحد والذي يتكلم عنه هو واحد وثلاثة، وأن الإله حل في رجل، وأنه فقير، وأنه عانى وصلب ومات ودفن، وكان هو نفسه معجزة، وفي سر القربان المقدس أن سر التوبة ضروري مطلقًا، وأن الزواج الآحادي لابد منه، وأن الرباط المقدس لا ينفصم، وأن الحياة يجب أن

تكون صليبًا متصلًا، وأنه يجب أن يحسن الإنسان إلى أعدائه، وأن السعادة الحقة تكمن في أشياء لا تراها العين، ولم تسمعها الأذن، ولم تخطر على قلب الإنسان، وحِكَم أخرى مشابهة لا تكون في متناول السمع الإنساني، أو تكون صعبة جدًّا إن لم تكن مستحيلة بالنسبة لحياتنا وحماقتنا الطبيعية؛ فأي وثني سيسمع هذه الأشياء ويقارنها بمذهب القرآن، انظر إلى أي جهة سيتجه؟. إنه سيتوجه حتمًا ناحية الإسلام. إن غير المؤمنين يفضلون محمدًا، ويعتنقون دينه من كل قلوبهم[(١)].

***

تلك إشـارات- مجرد إشـارات- لبعض ما حواه هذا الكتاب الفذ (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) الذي كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوي- بالفرنسية- سنة ١٩٨٩م والذي ترجم إلى العربية سنة ١٩٩٩م والذي تتزايد أهميته مع تصاعد ظاهرة «الإسلاموفوبيا» في الغرب، تلك التي تتسرب دعاواها ومزاعمها إلى دوائر الغلو العلماني في عالم الإسلام!

● وفي الكتاب الثاني (دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره) **يواصل الدكتور بدوي الكشف عن دور الاستشراق في التأسيس لظاهرة «الإسلاموفوبيا»؛ فيقول: «خلال تتبعي للمفاهيم التي يتبناها الأوروبيون حول نبي الإسلام محمد، انتابني الذهول من جهلهم المطبق، وعدوانيتهم الواضحة، وأحكامهم المسبقة، المتأصلة، وتحزبهم الطاغي ضد خصومهم، وهذا لا ينطبق فحسب على الشعب الجاهل والساذج، ولكنه ينطبق أيضًا على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين والمؤرخين، حتى أنه خلال القرون التي شهدت انطلاق الفكر الأوروبي من القرن الثاني عشر وحتى القرن السابع عشر، لم يكن لدى أي من هؤلاء**

(١) د. عبد الرحمن بدوي (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) ص ٢٣، ٢٤، ٦-٨، ٣٣، ٧٥-٧٩، ١٨٩، ١٩٠، ١٢٦، ١٢٨-١٥٩، ١٦٠، ١٥٣، ١٥٤. ترجمة: كمال جاد الله. طبعة الدار العالمية للكتب والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٩٩م.

المفكرين الشجاعة في تحري المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه، فلا «ألبرت الكبير» (١١٩٣ – ١٢٨٠م) ولا «توماس الأكويني» (١٢٢٥ – ١٢٧٤م) ولا «روجربيكون» (١٢١٤ –١٢٩٤م)- في القرن الثالث عشر-، ولا «فرنسيس بيكون» (١٥٦١ – ١٦٢٦م) ولا «بسكال» (١٦٢٣ – ١٦٦٢م) ولا «اسبينوزا» (١٦٣٢ – ١٦٧٧)- في القرن السابع عشر-؛ لم يحاول أي من هؤلاء أن يبذل جهدًا لفهم الإسلام، مع أنهم كانوا يعرفون- بشكل أو بآخر- الفلاسفة والعلماء العرب، ولم يدخروا وسعًا في مهاجمة آرائهم ودينهم.

وقد شهد «رينان» (١٨٢٥ – ١٨٩٢) على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على محمد؛ فقال: «لقد كتب المسيحيون تاريخًا غريبًا عن محمد. إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمدًا كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له. ولقد وصمه «دانتي» (١٢٦٥ – ١٣٢١م) بالإلحاد في رواية الجحيم- (الكوميديا الإلهية)-، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره، مرادفًا لكلمة كافر، وزنديق. ولقد كان محمد في نظر كتّاب العصور الوسطى تارة ساحرًا، وتارةً أخرى فاجرًا شنيعًا، ولصًّا يسرق الإبل، وكاردينالًا لم يفلح في أن يصبح «بابا» فاخترع دينًا جديدًا اسمه الإسلام؛ لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزًا لكل الموبقات وموضوعًا لكل الخطايا الفظيعة».

وحتى في أيامنا هذه، لاحظت أنه لا تزال عند القساوسة في بلاد الإسلام نفس آراء «بيير باسكاسيو» (١٢٢٨ – ١٣٠٠م) إبان القرن الثالث عشر.

لقد زعم الراهب الدمانيكي «ريكالدو مونتكروس» (١٢٤٣ – ١٣٢٠م) أن الملهم لمحمد هو الشيطان. وحرف الحديث الوارد عن النبي ﷺ والذي يقول: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف» إلى «نزل القرآن من سبعة رجال، وأن هؤلاء الرجال هم: «نفل» و«يمن» و«عمرة» و«إليسار» و«أسيرين» و«سبثير» و«ابن عمر». وهذا تحريف لحديث القراءات السبعة.

ولقد لخص «داكونا» هذا الخلط الكبير الذي وقع فيه الأوروبيون لمدة أكثر من أربعة قرون، فقال: «في الواقع، إن السيد محمد ومستشاروه يأخذ أحيانًا شخصية «بحيرى»، ومرة أخرى شخصية «ورقة بن نوفل»، ومرة يبدو مؤمنًا مدافعًا عن المسيحية، ومرة أخرى هرطقي أرياني أو يعقوبي أو نسطوري- حسب الرواية- وهو يعمل ليستجدي عطف أتباعه الذين أبعدوه. وحسب رواية أخرى يعمل على الثأر لنفسه، كما أنه دائمًا راهب، أو بطريرك، أو كاردينال. أما اسمه فهو «بحيرى» أو «سيرجيوس». كما أن محمدًا نفسه يقدم لنا مرة على أنه وثني، ومرة أخرى على أنه مسيحي يُدعى «أوكين»، أو «بلاجيوس» أو «نيقولا»، وهو ساحر، وأمي، وعالم من بولونيا، وقد جاء من القسطنطينية، ومن أنطاكية، أو من أزمير، أو من مناطق وثنية أخرى، أو من مناطق مسيحية. وهو مرة عربي، ومرة إسباني ومرة أخرى روماني من عائلة كولونا، ومرة يختلط اسمه باسم معلمه، ومرة يكون هو الراهب أو المطران الذي كان على وشك أن يصبح «بابا»».

ولقد استخلصت ضد محمد وأصحابه ترسانة من الشتائم فقدت معناها، مع سخريتها اللاذعة.

وحتى «فرنسيس بيكون» (١٥٦١ -١٦٢٦م)، وهو داعية المذهب التجريبي الشهير، يقول- في مقاله «الخديعة»-: إن محمدًا قال للعرب ذات يوم: إنه يستطيع أن ينادي الجبل ليأتي إليه، وقد كان الجبل بعيدًا، ولكن لما لم يتحرك الجبل ليأتي إليه، قال محمد لهم: «إذا كان الجبل لم يأت إلى محمد؛ فإن محمدًا سيذهب إلى الجبل».

والسؤال هو: كيف لرجل يدعي أنه يقيم أسس المنهج التجريبي وقواعده أن يعتقد في حقيقة تلك الفرية المختلقة؟!».

«وللأسف، فإن بعض السفهاء يرددون تلك الأسطورة حتى يومنا هذا»!

ويعلن الكاتب الهولندي، «أدريان رولاند» (١٦٧٦ - ١٧١٨م)- الذي كان عاقلًا في عداوته للإسلام: «إنه لم توجه إهانات إلى أي دين بقدر ما وجهت إلى الإسلام».

وإن أغلب هؤلاء الكتّاب- الذين نمدحهم بحماس- قد هاجموا دين محمد بأقل مما هاجموا أوهامهم. وقد وقعوا فيما نسميه السفسطة العادية، وهي الجهل بالقضية المطروحة، أي إثبات ما ليس من المفيد إثباته، ومهاجمة الآخرين بشعور من الوهم عن عقلياتهم.

ولقد رأيتني مضطرًّا للدفاع عن هذا الدين، خاصة في الأشياء التي نسبت زورًا وبهتانًا إليه، والتي تُخجل وجهَ الحقيقة حينما تعتمد على الأكاذيب التي لا تستند إلى أي شيء من الشرعية، وقد ألحقت بالمسلمين أوصافًا كثيرة، مثل: «خرقاء»، «أفظاظ»، «حمر وحشية»، «مجانين»، «مغفلين»، وحتى «شياطين».

وذلك حتى نكون في حالة جيدة ووضع سليم، نحن المسيحيين، في حوارنا مع المسلمين بطريقة منطقية، ومقنعة،

وحتى نهاجمهم من الآن فصاعدًا بشكل أكثر وضوحًا وثقلًا بعدد من الحجج والأدلة..».

وهكذا، فإن «رولاند» يضع نفسه في عداوة مع الإسلام، ولكنها عداوة عالم ذكي، بدلًا من المنتقصين من قدر الإسلام وهم كاذبون حمقى.

● ويعترف الأوروبيون- الذين يعادون الإسلام- بالحرية الدينية، التي ضمنها الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى في المجتمعات الإسلامية؛ فيقول الأب «رينودو»- صاحب كتاب (بطارقة الإسكندرية)-: «قديمًا كان مسموحًا للنصارى الشرقيين بعرض دينهم بطريقة عامة، شفويًّا، أو كتابة، ولهذا ظهرت كثير من المساجلات مدونة في المكتبات، ومنها:

١- مساجلة إبراهام الترهاني مع عبد الرحمن.

٢- مساجلة بين رجلي دين ويهودي اسمه غزيم.

٣- مساجلة إيلي، رئيس أساقفة نزيب، في ديار بكر بآسيا، مع الوزير أبي القاسم بن حسين المغربي.

٤- مساجلة عيسى بن زرعة مع أبي بكر البلخي.

٥- مساجلة أخرى لأبي قرة، وهي نوع من المؤتمر الدعوي للدين المسيحي جرت في حضرة الخليفة المأمون.

٦- مساجلة أخرى عن التثليث والتجسيد عقدت في القاهرة سنة ٦٣٩هـ ١٢٧٩م قام بها رجل يسمى ابن العسال.

٧- مساجلة أخرى مع راهب ووزير أحد أمراء إفريقيا، وقد كتبها رجل نسطوري.

٨- مساجلة أخرى مع راهب آخر يسمى «إجشنا»، من مدينة مرو، عاصمة خراسان.

٩- وأخيرًا محاورة بين راهب جديد ورئيسه، متعلقة بعبثية نبوة محمد، مع دحض للقرآن».

لقد اعترف الأعداء العقلاء- من المستشرقين- بهذه الحرية الدينية، التي سجلتها هذه الوثائق في المجتمعات الإسلامية. وما كان لهم أن ينكروا هذه الوثائق ودلالاتها، لكنهم لم يقارنوا بين ذلك وبين ما عاشوه في حضارتهم من حروب دينية، داخل النصرانية الأوروبية، بين الكاثوليك والبروتستانت، تلك التي أبيد فيها- باسم الحرب المقدسة- ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا!!

***

وبعد حقائق هذا الزيف الـذي صنعه الاستشراق الغربي بصورة الإسلام، وصورة نبيه، والتي بلغت حد السفه العبثي، والعبث السفيه؛ يرصد الدكتور عبد الرحمن بدوي العناوين الكبرى لافـتراءات الغرب على رسول الإسلام، والتي بلغت أقصى درجات المبالغة الساقطة، والسفه العلمي، والحقارة والدناءة؛ يرصد هذه الافتراءات، ويصنفها في موضوعات ثمانية:

-١-

أولاها: زعم عدد من المستشرقين- مثل « شبرنجر» (١٨١٣ – ١٨٩٣م): (أن محمدًا كان مصابًا بالهيستيريا، وحتى الصرع).

وفي الرد على هذا الافتراء- من الأعداء العقلاء- يقول «تور أندريا» (١٨٨٥ – ١٩٤٧م):

«إن الحالة التي كان عليها محمد إبّان نزول الوحي لا يمكن أن توصف بأنها حالة مرضية، إن لم توصف بأنها إلهام لكثير من العبقريات الأدبية والدينية، بدعوى أنها تظهر في أشكال واضحة وتنبع من مكان واحد.

ويقول «فرانتس بول» (١٨٥٠ – ١٩٣٢م): «**إننا لابد أن نصل إلى فهم كامل لشخصية محمد عندما ندقق فيما كانت عليه حالته في الفترة الأولى من ظهوره في مكة، وقد كان على خلق عظيم وشخصية مستقيمة، ونموذجية بشكل يسترعي الانتباه.**

إن محمدًا كان صادقًا عندما قال: إنه يتلقى الوحي؛ لأنه كان مقتنعًا تمامًا برسالته؛ حيث اعتقد اعتقادًا جازمًا أنه يسمع صوتًا من أعلى يتلو عليه القرآن.

وقال «موريس جود فرو اديمومبين» (١٨٦٢ – ١٩٥٦م): **(لقد رأى آخرون في محمد إنسانًا مصروعًا، وعرّفوه بأنه كاذب وغير مسئول.**

لكن الصرع يسلب ذاكرة المريض، بينما القرآن كتاب معتبر، ويدل على انتباه وفصاحة.».

وهكذا نرى أن قضية إصابة محمد بالهيستيريا والصرع قد تخلى عنها المستشرقون منذ بداية القرن العشرين، ولم يعودوا يتكلمون عنها إلا كذكرى تاريخية.

ونحن إذا عرضنا هذه الفرية- فرية الهيستيريا والصرع- على العلم؛ فإننا نجد:

١- أن المصاب بالهيستيريا قابل للتأثر مع اتجاه للتشبه بالأمراض العضوية، بينما يتفق كل كتّاب السيرة المسلمون على التأكيد على صلابة وقوة احتمال واستقرار نفسية محمد أمام كل العوامل الخارجية، وقد كان ذا سلوك حازم بما لا يدع مجالًا للشك.

٢- إن المصاب بالهيستيريا يخاف من الانزعاج، ويسير في سلوكه تبعًا لسلوك الآخرين، بينما لم يكن لدى محمد أي خوف من أن يزعجه أعداؤه. ولقد كانت حياته منذ نزول الوحي كفاحًا مستمرًا لم تخل من الاهتمامات. وأي محارب مثابر لا يمكن أن يوصف بأنه يخاف من الانزعاج.

٣- إن شخصية المصاب بالهيستريا شخصية متقلبة وفجة، مع أنانية مفرطة، وحاجة إلى الحماية تظهر بوضوح، وكل هذا أبعد ما يكون عن شخصية محمد حسبما تورد شهادات معاصريه. فلقد كان لمحمد شخصية قوية في صلابة الصخر، وكان دائمًا ثابتًا، كما تشهد علاقته بأصحابه على إيثار لا ينقطع في أشد حالات حياته خصاصة، وحتى صار كرمه ورحمته تجاه أعدائه الذين اضطهدوه كثيرًا؛ مضرب الأمثال.

٤- إن المصاب بالهيستريا يؤلف عن نفسه قصة، ويضخم تفاصيل حياته اليومية، ويبتكر بسهولة بعض الذكريات، ويعطي من حوله إحساسًا بعدم صدقه في حديثه أو حركاته. وهذه الأشياء متناقضة تمامًا مع سلوك محمد، فلقد كان يسمى دائمًا «الصادق الأمين». ولم يتحدث عن تفاصيل حياته اليومية، ولم يؤلف أو يتظاهر بشيء غير حقيقي أمام الناس.

ومن باب أولى فإنه لم يكن مصابًا بالصرع؛ حيث أعراض الصرع تظهر بقوة وبعنف وبوضوح، وفي الواقع لم يروَ عن محمد حدوث أي أزمة من أزمات الصرع؛ حيث لم يحدث له أن فقد التركيز، أو حدثت له تشنجات شاملة، أو أي أزمة استمرت لساعة أو ساعتين، ولم تحدث له أزمة كان يمكن أن يفقد فيها السيطرة على بوله، وأخيرًا لم يحدث له أن فقد الذاكرة..».

وبحلول النصف الثاني للقرن التاسع عشر كان التحليل النفسي هو الموضة السائدة، وكانوا يفسرون العبقريات العظيمة بالجنون. وكان يكفي أن يكون الإنسان أعلى من سواد البشر ليوصف بالجنون وقد وصل هذا الاتجاه إلى منتهاه مع «فرويد» (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) وتلامذته ولقد كتب «ماكس نوردو» (١٨٤٩ - ١٩٢٣م) كتابه: (الانحطاط) سنة ١٨٩٢م مضيفًا صفة الجنون على كل العبقريات العظيمة وبنفس الروح كتب (شبرنجر) هذا الذي كتبه عن النبي محمد».

❋ ❋ ❋

-٢-

والفرية الاستشراقية الثانية على رسول الإسلام، هي دعوى: (أنه صوفي)

وبشكل عبثي، وحتى يتخلى هؤلاء المستشرقون عن تلك الدعوى القائمة على غير أساس من أن محمدًا كان مصابًا بالهستيريا أو بالصرع، بحثوا عن تفسير آخر لحالات النبي قبل وأثناء نزول الوحي. وهذا التفسير الآخر يستند إلى اعتبار محمد صوفيًّا.

وكان أول مستشرق يعتمد ذلك التفسير هو «لويس ماسينيون» (١٨٨٣ – ١٩٦٢م) في رسالته «مقال عن أصل المعجم الغني للتصوف الإسلامي» ١٩٢٢م.

ولكن محمدًا لم يكن صوفيًّا على طريقة «الحلاج» (٣٠٩ هـ – ٩٢٢م) و«البسطامي» (١٨٨ – ٢٦١ هـ ٨٠٤ – ٨٧٥م) أو «ابن عربي» (٥٦٠ – ٦٣٨ هـ ١١٦٥ – ١٢٤٠م)، ولا حتى على طريقة «الغزالي» (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ ١٠٥٨-١١١١م) أو «الجنيد» (٢٩٨ هـ ٩١١م)؛ **ولكن تصوفه كان عبارة عن زيادة في تقوى الله، مع الاحتفاظ بالشعور دائمًا، وإلا لما كان من الممكن أن يكون هذا المنظم العظيم لدولة كبيرة، ولا هذا المخطط الكبير للحروب، ولا هذا الساسي العظيم في تصريف شئون الدولة، ولذلك فمن المستحيل أيضًا أن نقارن تصوفه بأي تصوف آخر عبر التاريخ.**

إن التصوف عند محمد كان محـدودًا في نطاق الزهد والنسك المعتدل، والخلو الروحي في غار حراء، والصلوات التهجدية طوال الليل، والصيام».

- ٣ -
والفرية الاستشراقية الثالثة هي دعوى: (حسّيّة الرسول وشهوانيته)

وفي ذلك كان حديث المستشرقين عن تعدد زوجاته ﷺ:

وفي تفنيد هذه الدعوى؛ يأتي الحديث عن تعدد الزوجات في التاريخ..

فلقد سمحت شريعة موسى بالتعدد، وكان لإبراهيم زوجتان- على الأقل- سارة وهاجر. وقد تزوج يعقوب بأختين في وقت واحد، كما كان له كثيرات مِلك اليمين، هن إماء زوجاته. كما كان ضمن القضاة كثير من المعددين، وقد اتخذ داود نساء أو سراري بأورشليم، وولدْن له بنين وبنات، وكان لسليمان عدد كبيرِ من النساء الأجنبيات، وكان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة أَمَة. وكان اتخاذ عدد كبير من الزوجات والسراري عادة عند كل الملوك السابقين على «جودة» و»إسرائيل». وخلال العصور الوسطى كان التعدد مباحًا عند اليهود ولم يترك اليهود التعدد حتى بعد تحريم السريين في مؤتمر الإصلاح الذي عقد في فلادلفيا سنة ١٨٦٩م.

وبالنسبة للرسول ﷺ..

فلقد استمر زواجه بخديجة- التي كانت تكبره في العمر بخمس عشرة سنة- ٢٤ عامًا- أي حتى تجاوز الخمسين من العمر، وحمل هموم الدين والدنيا.

ولقد تزوج سودة بنت زمعة، بعد موت خديجة بشهرين، وهي أرملة عجوز متقدمة في السن، لا أرب لها فيما تريده النساء من الدنيا، وذلك لترعى بناته السبع.

ثم تزوج بعائشة، وهو في الثالثة والخمسين من عمره- أي قبل وفاته بتسع سنين.

وكان الهدف من زيجاته المتعددة:

أ – إما تقوية أواصر المحبة بينه وبين كبار الصحابة– عائشة بنت أبي بكر.. وحفصة بنت عمر.

ب – وإما للارتباط بكبرى القبائل العربية– مثل جويرية بنت الحارث رئيس قبيلة بني المصطلق وميمونة بنت الحارث، من قبيلة بني هلال– وكان هذا الزواج سببًا في إسلام خالد بن الوليد. وكانت ميمونة خالته.

ج – أو ليحمي الأسيرات اللاتي كن يتمتعن بمكانة عالية في قومهن– مثل ريحانة بنت زيد بن عمر وصفية بنت حيي بن أخطب وأم حبيبة بنت أبي سفيان.

د – وأخيرًا؛ ليحفظ مركزًا اجتماعيًّا لامرأة، وتلك حالة زينب بنت جحش بنت أمامة بنت عبد المطلب عمة النبي.

وهي بواعث لا تدخل في نطاق الشهوانية الجنسية؛ فلقد كان محمدًا نبيًّا متفردًا وغير عادي– كان نبيًّا ومؤسس دولة سياسية.

ولهذه الأسباب لم يطلّق أيًّا من زوجاته؛ لأن الطلاق كان لابد أن ينتج عنه فصم رابطته بالقبيلة أو الشخص القوي الذي تنتمي إليه المرأة المطلقة.

ولذلك كان هذا الحد من التعدد خصوصية له دون المؤمنين. لقد تفرد بين الأنبياء كمؤسس دولة، كما كان آخر الأنبياء. يقوم الليل إلا قليلًا، وفيه يرتل القرآن ترتيلًا؛ لأن الله قد ألقى عليه حملًا ثقيلًا..».

* * *

-٤-

والفرية الرابعة، التي احتشد المستشرقون حولها يذرفون الدموع، هي موقف النبي ﷺ من اليهود بالمدينة المنورة.. أي (محمد واليهود)

فلقد احتشد المستشرقون، فأقاموا مناحة ذرفوا فيها الدموع على يهود المدينة، متهمين النبي بظلمهم والعدوان عليهم وركـزوا افتراءاتهم- بالخصوص- على موقف الرسول من:

أ – يهود بني قريظة.

ب – وغزوة خيبر.

ج – وقتل كعب بن الأشرف.

د- وقتل أبي رافع بن أبي الحقيق.

ولقد تناسى هؤلاء المستشرقون- وأغلبهم يهود أو متهودون- أن كل الإجـراءات التي اتخذها النبي ضد اليهود، سواء كانت فردية أو جماعية، كانت تمليها اعتبارات حربية. **فيهود المدينة منذ وطئتها قدم النبي حاربوه حرب تخريب، وحربًا دينية وعقائدية، وحرب أعصاب، وأخيرًا حربًا مسلحة قصيرة**؛ فقد حاولوا أن يؤلبوا القبائل العربية المحاربة على محمد والإسلام وعاصمته المدينة، بالمؤامرات والمال والسلاح، وعرّضوا الأمة الإسلامية الناشئة للمخاطر المتواصلة. وحتى يحافظ النبي على نفسه ودينه لم يكن من الممكن أن يظل مكتوف الأيدي أمام الخطر اليهودي. ويا لتعاسة من يرى مثل هذا الخطر ولا يسرع لاستئصاله بشتى الطرق!.

والدموع التي يذرفها المستشرقون على مصير اليهود في مختلف حلقات صراعهم مع النبي لا تنم إلا عن نفاق بواح؛ لأنهم عندما يتعلق الأمر ببلادهم لا يذرف أي منهم دمعًا في الظروف المشابهة لتلك الظروف.

إن أيًّا من الإجراءات التي اتخذها محمد لم يكن بدافع ديني أو عنصري، ولا حتى بدافع اقتصادي كما يحلو لبعض المستشرقين أن يذكروه، ومما يدل على ذلك أن القيمة التي حصّلها المسلمون من وراء ذلك كانت تافهة، وفي بعض الأحيان لم تكن توجد غنيمة.

وفيما يتعلق بالصراع مع بني قريظة:

ففي شهر شوال سنة ٥ هـ - مارس سنة ٦٢٧م.. ذهبت جماعة من اليهود من بني النضير وبني وائل إلى القرشيين بمكة، وأغروهم بحرب رسول الله؛ قائلين: «نحن معكم عليه حتى نستأصل شأفته». فقال لهم أهل مكة: «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، وأنتم أهل للحكم بيننا بين محمد، فمن على الحق، ديننا أم دين محمد؟» فرد عليهم اليهود: «دينكم خير من دينه وأنتم على الحق دونه».

وعندما سمع القرشيون ذلك تهللت أساريرهم، وتحفزوا لقبول ما عرضوه عليهم من حرب رسول الله ﷺ وأبرموا اتفاقًا فيما بينهم، وتواعدوا على الحرب.

ثم رحل هؤلاء اليهود، وذهبوا إلى قبيلة غطفان- وهي من بطون قيس بن عيلان- وأغروهم بحرب الرسول؛ قائلين لهم: «سنكون معكم نحن وقريش».

ثم إن حيي بن أخطب اليهودي ذهب إلى كعب بن أسد، زعيم بني قريظة، ودعاه إلى نقض حلفه مع النبي ومساعدة قريش وبني غطفان عندما يأتون ويهاجمون المدينة، فنقض كعب بن أسد- باسم يهود بني قريظة- عهده مع النبي.

ولقد حكم «مكسيم رودنسون» (١٩١٥ - ٢٠٠٤م)- وهو مستشرق يهودي- بعدالة المصير الذي أصاب يهود بني قريظة، وقال: «**لقد كانت مذبحة بني قريظة من ناحية أخرى ومن وجهة نظر سياسية أمرًا مفروضًا، فقد كان بنو قريظة يمثلون خطرًا دائمًا على المدينة، وكان تركهم يرحلون يقوي مركز المؤامرات المضادة للمسلمين في خيبر، والموتى**

فقط هم الذين لا يعودون، وقتلهم من الممكن أن يساهم في إضعاف الروح المعنوية لدى الأعداء، وقد كان الحل الذي اختاره محمد هو الأمثل من الناحية السياسية، ونعلم جيدًا أن السياسيين لا يقبلون الاعتبارات إلا عندما تصبح لديهم عوامل سياسية مفيدة، أو عندما لا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك».

وفيما يتعلق بغزوة خيبر:

فقد كان غزو النبي لها ووادي القرى مبررًا تمامًا من الناحية السياسية والدينية، وحتى الاقتصادية. ولذلك فإنه لم يجرؤ أحد من المستشرقين، حتى الحاقدين على الإسلام؛ أن يرفع صوته بالاحتجاج على هذه الغزوة، وما أحسن ما قاله- بإنصاف- «مونتجمري وات» (١٩٠٩ - ٢٠٠٦م): **«إذا كان يهود المدينة بعد تصفية بني قريظة، ظهروا بمظهر الموادعة، فإن يهود خيبر، ومن بينهم زعماء بني النضير، قد كانوا مثيرين للقلاقل، ومعبئين ضد محمد دائمًا بدافع الثأر، وكانوا يوظفون ثرواتهم في جزء كبير منها لتحريض العرب المحاربين، ولا سيما القبائل القوية، مثل غطفان على التحالف معهم ضد المسلمين، ولقد كان محمد على حق في مهاجمة خيبر».**

وفيما يتعلق بقتل كعب بن الأشرف:

فإن المستشرق كايتاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦) يقول: «من بين اليهود يتميز على الخصوص الشاعر كعب بن الأشرف- وهو من بني النضير- بالعنف، وعداوته اللدود التي كان يبديها في كل موقف باتجاه محمد والإسـلام، وكان أحد الذين أبدوا قمة الحقد لنصرة المسلمين في بدر، ولم يستطع أن يعزي نفسه للهزيمة الساحقة للقرشيين، الذين كان يسميهم «ملوك البشرية»، وبدافع من كراهيته للمسلمين رحل كعب إلى مكة، وأقام عند المطلب بن أبي وداعة بن دبيرة السهمي، زوج عاتكة بنت أبي العاص بن أمية، فاستقبله

هذان الزوجان استقبالًا حارًّا، وقد نظم كعب قصيدة يحيي بها الأمل في نفوس القرشيين ويلهب عواطفهم للثأر، وقد بكى القرشيون القتلى، وحرض أهل قريش بعنف ضد محمد، وقد زاعت أشعار كعب في مكة وأحدثت أثرًا عظيمًا وأثارت القرشيين، وأعادت إليهم ما كانوا نسوه من المشاعر بعد هزيمة بدر، ولم يترددوا في إظهار ألمهم الفاجع، وقد استمر ذرف الدموع والشجن العام لمدة شهر في مكة.

وما تزال قصائد كعب ترد حتى وصلت إلى مسامع محمد، الذي تألم للمساوئ التي يسوقها الشاعر، وقد أمر محمد، بدافع أهمية قصائد هذا الشاعر؛ أمر شاعره حسان بن ثابت أن يرد على جميع هذه القصائد الساخرة التي نظمها أعداؤه شعرًا.

وقد حاول كعب أن يتهم النساء المسلمات في شرفهن.

وباختصار، لقد حاول هذا الشاعر أن يبدو الأكثر جرأة، والذي لا يمكن احتماله أمام أعين الناس.

لقد ذهب إلى مكة يحرض القرشيين على الأخذ بثأرهم من هزيمة بدر، ورجع إلى المدينة، ولم يكف عن مهاجمة النبي ودينه بأفظع قصائد السباب، ونظم قصائد فاضحة تهدف إلى التشهير بالنساء المسلمات، مما ألحق بهن الأذى».

وفيما يتعلق بقتل أبي رافع بن أبي الحقيق:

فلقد كانت جريمته أشنع من جريمة كعب بن الأشرف؛ لأنه كان يحرض غطفان والقبائل العربية الأخرى لمحاربة محمد والمسلمين، وقد وعدهم بالمال والسلاح».

***

-٥-

والفرية الاستشراقية الخامسة هي دعواهم حول علاقة النبي ﷺ بالمسيحية (محمد والمسيحية)

وفيما يتعلق بالموقف القرآني من المسيح، فإن الآيات القرآنية يمكن أن نستخلص منها:

١- أن عيسى ما هو إلا رسول من رسل الله، مثله في ذلك مثل بقية الرسل.

٢- أن عيسى بشر لا أكثر ولا أقل، مثله في ذلك مثل أي بشر آخر خلقه الله.

٣ - إذًا فهو ليس ابنًا لله؛ لأن الله لم يلد ولم يولد.

٤- إذًا فعيسى ليس أحد أقانيم التثليث، والتي هي الأب والابن والروح القدس.

٥ - لقد خلق الله عيسى كما خلق الناس جميعًا، أي بقوله: كن، وكن هذه هي فعل الله وعلمه كذلك، فعندما يقول القرآن إن عيسى خلق بكلمة الله، فهذا يعني فقط بأمر الله، أي بالنفخة الإلهية التي لا علاقة لها بالكلمة Logos - المذكورة في إنجيل القديس يوحنا، والتي تطورت فيما بعد بشكل كبير في اللاهوت المسيحي.

٦- لقد قام عيسى بمعجزاته، ليس بقوته الذاتية، ولا بإرادته الذاتية، ولكن بقدرة الله، وتلك هي حالة بقية الأنبياء الآخرين في معجزاتهم، وهدف هذه المعجزة في القرآن- وحسبما يقول الإسلام-، هو أن تثبت أن الأنبياء الذين قاموا بها مرسلين من قبل الله ليؤدوا رسالة عهد بها إلى أناس أرسلهم الله إليهم.

وهذا مناقض تمامًا لما فهمه آباء الكنيسة من دور المعجزات التي قام بها يسوع المسيح في الواقع. لقد أكد آباء الكنيسة أن معجزات المسيح تثبت ألوهيته.

٧- وفيما يتعلق بموت يسوع المسيح، فإن القرآن صريح، فلم يقتل اليهود عيسى ولم يصلبوه، إذًا فقد مات موتًا طبيعيًّا.

وهذا المفهوم القرآني ليسوع له سوابق عند بعض ممثلي الكنيسة المسيحية في بدايتها، أي حين كانت قريبة من منابعها الأولى قبل أن تحرف على نطاق واسع من قبل البيزنطيين، وتدخل في تفسيرات عقيمة.

ولقد ظلت هذه الأفكار موضع تقدير من جانب أكبر وجهاء المسيحية، في عهدها الأول، ولذلك فهي تمثل العقائد المسيحية في صفائها.

إذًا، فمن الخطأ اتهام القرآن بأنه أساء التصور عن المسيحية ومؤسسها، وهو اتهام ردده المستشرقون.

وبالنسبة لتأليه مريم:

فليس بالقرآن ما يؤكد أن مريم جزء من الثالوث، وأقنوم من هذا الثالوث.

وهناك شهادات تؤكد أن عبادة مريم- باعتبارها إلهة- انتشرت في الشرق المسيحي بداية من القرن الرابع، وكان لها أتباع من مسيحيي الجزيرة العربية.

ومن هنا نستخلص:

١- أن القرآن قد ذكر الحقيقة حين نعى على المسيحيين (أو على بعض الطوائف المسيحية) أن يعبدوا مريم أم عيسى على أنها إلهة.

٢- والقول بأن القرآن قال إن مريم أحد أقانيم التثليث الثلاثة؛ هو أكذوبة كبرى اخترعها المبشرون والمستشرقون

الذين هم في نفس الوقت مبشرون ومسيحيون شرقيون سيئو النية، مثل «قنواتي» (١٩٠٥ - ١٩٩٤م).

وفي المواضع الثلاثة التي تحدث فيها القرآن عن الروح القدس؛ فإنه يعني الوحي الإلهي، أو دعم الله لنبي من الأنبياء، أو لرجل عبقري. فروح القدس في القرآن ليست لها علاقة بروح القدس ثالث أقانيم الألوهية، ولا يمكن أن يقول القرآن غير ذلك؛ لأن القرآن يدين مذهب التثليث مطلقًا عند المسيحيين.

ونحن يمكننا أن نعتبر تأليه مريم هو نتيجة حتمية لعبادة مريم التي بدأت منذ القرن الثاني. وقد اعتبرت مريم منذ ذلك الوقت مشاركة في الخلاص، أي أنها تشارك مع ابنها في خلاص العالم، ويعتقد أغلب علماء اللاهوت الكاثوليك أنها تتعاون مع ابنها يسوع مباشرة، وبشكل دائم في عملية خلاص البشرية.

وكان تيودونس البيزنطي، الذي أقام في روما، يدرس فيها، يقول: «إن يسوع لم يكن إلا بشرًا ولد من عذراء، وقد عاش حياة دينية أكثر من قرنائه، ومنذ تعميده في الأردن دخل المسيح في شكل يمامة، ومنحه القوى التي كان يحتاجها لينجز مهمته».

وهذا التيار في المسيحية، في القرن الثاني والثالث والرابع في المسيحية يسمى الملكانيين، أو الوسيط.

والقرآن لم يسند إلى عيسى دور المخلص؛ لأن الخلاص لا يكون إلا من الواحد الأحد، فهو وحده مخلص البشر.

ومذهب بولس الساموسي (٢٦٠ - ٢٧٢م) يتلخص في تقرير أن هناك إلهًا واحدًا، من ضمن ما يتصف به الحكمة، أو العقل، ومسيح هو يسوع رجل بشر مثل كل البشر تلقى الحكمة الإلهية.

ومن بين البراهين التوراتية التي يستند عليها بولس الساموسي نذكر الأمثلة الآتية:

(أ) فيما يخص الله وحده، نقرأ في العهد القديم: «الرب إله واحد». وكذلك نقرأ في رسالة بولس إلى الرومانيين: «حتى لا يكون سوى إله واحد فوق الجميع».

(ب) وفيما يخص بشرية عيسى، فهذه آية من إنجيل القديس لوقا (إصحاح ٣ - آية ٢٣): «وبدأ عيسى يبلغ حوالي الثلاثين من عمره». إن كلمة بدأ تعني بالضرورة أنه بشر وليس إله، وهذه آية أخرى من إنجيل يوحنا: «وقد منحه القدرة على الحكم؛ لأنه ابن البشر» (إنجيل يوحنا: إصحاح ٥ - آية ٢٧).

والكنيسة المسيحية حين أدانت مذهب بولس الساموسي، قد ضيعت على نفسها فرصة جيدة، لتصحيح مذهبها عن طبيعة المسيح، ذلك المذهب الذي يضاد العقل والمنطق.

وحتى نحافظ على وحدة الإله؛ فإن الكنيسة كان يجب عليها أن تعتمد مذهب بولس الساموسي.

كذلك فإن مفهوم القرآن عن عيسى هو المفهوم الوحيد الذي يتطابق مع مذهب وحدة الإله».

-٦-

والفرية الاستشراقية السادسة، هي الزعم بأن النبي لم يكن يفي بالعهود والعقود.. أي التشكيك في:

وفاء محمد بالعهود المعقودة

«فعن صلح الحديبية» يقول «فرانتس بول»: «إن الذي يعرف موقف محمد من عهوده واتفاقياته لا يشك أن نيته منذ البداية سوف تكون التحلل من هذا الالتزام حالما تسنح الفرصة».

لكن الواقع التاريخي يقول.. إن القرشيين كانوا هم الذين نقضوا صلح الحديبية، وذلك بمساعدتهم قبيلة بكر- حليفتهم- في العدوان على قبيلة خزاعة- حليفة النبي.

فبأي حق إذًا يتهم «فرانتس بول» النبي بعدم الوفاء بتلك المعاهدة؟. ولكن كراهيته الشديدة وحقده على محمد والإسلام قد أعمياه تمامًا. والأغرب من ذلك أن «فرانتس بول» ومن على شاكلته لم يوردوا أي حالة حدث فيها الخرق المزعوم من جانب النبي.

ولقد اعترف «ليون كايتاني» أن القرشيين هم الذين نقضوا صلح الحديبية..

ولقد سجل الشعر هذه الحقيقة؛ فعمرو بن سالم الخزاعي، ذهب إلى المدينة طالبًا النصرة من النبي ﷺ بعد أن نقضت قريش عهدها معه، وشاركت بكرًا في قتل حلفاء النبي غدرًا، وهم راكعون وساجدون. وأنشد الرسول ﷺ:

لا هُمَّ إني ناشدٌ محمدًا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيَّوتنا بالوتير هُجّدا وقتلونا رُكّعا وسُجّدا
فانصر هداك الله نصرًا أبدا وادع عباد الله يأتوا مددا

رحمة النبي حتى بمن نقضوا العهود:

ويشكك المستشرقون في رحمة النبي وفي دوافع هذه الرحمة على الرغم من أن النبي قد أبدى مثالًا نادرًا في الرحمة ونبل النفس في أبهى صوره؛ حينما قهر أعداءه الذين طالما أزعجوه وآذوه وتآمروا عليه. فلقد عفا- يوم فتح مكة- عن كل أعدائه القرشيين الذين شنوا عليه حربًا شعواء لمدة عشرين سنة، ولما وصل إلى باب الكعبة، وتوجه إلى أعدائه القرشيين قائلًا: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ومع ذلك يفسر «مكسيم رودنسون»- الماركسي- هذا العفو تفسيرًا اقتصاديًّا ماديًّا، فيزعم أن محمدًا استفاد من عفوه هذا بأن اقترض من أغنياء قريش مبالغ كبيرة؛ فيا لها من سفالة مادية تاريخية!

ولم يتحدث «رودنسون»- بالمنطق المادي الاقتصادي- عن أموال المسلمين المكيين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، التي اغتصبها أغنياء قريش.

كما لم يشر لنا أي من هؤلاء المستشرقين إلى نموذج واحد من الشهامة المماثلة في كل تاريخ أوروبا حتى وقتنا هذا.

***

- ٧ -

والفرية الاستشراقية السابعة هي: الطعن في أصالة العبادات الإسلامية

● **ففي الصلاة:**

يزعم «فرانتس بول»: أن محمدًا قد حذا حذو اليهود في ممارستهم الصلاة اليهودية، مع أن صلوات اليهود ثلاثة وليست خمسة كما هي في الإسلام.

ويزعم «جود فرو اديمومبين»- في تأكيد وقح- أن الصلوات الإسلامية الخمس وممارستها التقليدية إنما شرعت بعد وفاة النبي!

ولم يسألوا أنفسهم: ماذا سوف يستفيد المسلمون من زيادة عدد الصلوات من ثلاثة إلى خمسة؟ هل كانوا يخافون أن يتهموا بتقليد اليهود؟ ولكن أي يهود؟ ألم يطرد هؤلاء اليهود نهائيًّا من الجزيرة العربية بأمر الخليفة عمر حوالي سنة ٢٠هـ؟

ثم.. إن علينا أن نلاحظ أولًا أنه من الخطأ التأكيد على أن هناك فريضة عند اليهود تفرض عليهم أن يؤدوا ثلاث صلوات في اليوم ولم نجد في العهد القديم أي شعيرة تأمر بالصلاة ثلاث مرات في اليوم عند اليهود. ومن المؤكد أنه حتى الأيام الأخيرة من المعبد الأول لم تكن أي صلاة قد فرضت، ولا حتى أمر عام للصلاة عند اليهود، فهؤلاء المستشرقون الذين ادّعوا أن محمدًا اقتبس من يهود المدينة عدد وشكل الصلاة الإسلامية؛ لا يعرفون شيئًا عن الصلاة عند اليهود.

ولقد زعموا أن سورة الفاتحة هي صورة لما يسمى في المسيحية بالقداس الأبوي، بينما المقارنة بين الفاتحة وهذا القداس تبرز العديد من الفروق:

أ – ففي الفاتحة، الله هو المتعالي مطلقًا، أما في القداس فإن الله متعالٍ عن الكون، ومحددة إقامته في السماء.

ب – وفي الفاتحة الله هو الرحمن الرحيم، بينما لا يوجد شيء من ذلك في القداس.

ج – في الفاتحة، الله هو مالك يوم الدين، أما في القداس فإنه يأمر بأن يتقدس مجده، وليس هناك أي كلمة عن اليوم الآخر.

د – في الفاتحة، يدعو المسلمون الله بكل خضوع وانكسار أن يساعدهم، أما في القداس فإنهم يأمروا الله أن يعطيهم خبزهم اليومي.

هـ – في الفاتحة، ندعو الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، أما في القداس فيطلبون من الله أن يحط عنهم خطاياهم، وأن يفعل مثل ما يفعلون من حط الخطايا عن المخطئين، كما يأمرون الله ألا يتركهم في الغواية، وأن يخلصهم من الشرور، إذًا فإننا في القداس نحن الذين نأمر الله وهو الذي يعطينا.

ومن هذه المقارنات يتضح أن روح الفاتحة متناقضة تمامًا مع روح القداس المسيحي، وبرغم هذا الاختلاف التام بين الاثنين؛ فإننا نجد أن من المستشرقين أغبياء أكدوا أن الفاتحة مقتبسة من القداس الأبوي.

كما أن صلوات المسلمين تعتمد على ثلاثة أفعال: قيام، وركوع، وسجود. مع تلاوة آيات قرآنية في القيام، وتسبيح في الركوع والسجود.

ولقد عجز المستشرقون عن العثور على أيٍّ من هذه الأركان الثلاث مجتمعة في صلوات العرب الجاهليين، أو في القصص التوراتية، أو في النسك المسيحية، أو في أي صلاة في الأديان الأخرى، وكانت محاولتهم عبثية ومثيرة للسخرية.

● **وفي الصيام:**

لقد روي أن النبي أمر المسلمين بصيام عاشوراء- وهو العاشر من المحرم- ولقد زعم «كاتاني» ومستشرقون آخرون «أن في هذا تشبُّهًا بصيام اليهود».

(أ) ولكن هذا يقتضي أن الصيام لم يمارسه المسلمون أبدًا خلال إقامة النبي في مكة. ومع أن هناك حديثًا مسندًا إلى عائشة يقول: إن محمدًا أمر أتباعه خلال إقامته في مكة بصوم العاشر من المحرم (البخاري). وهناك عدد من الأحاديث غير هذا الحديث.

(ب) **والعاشر من تشرين- السنة اليهودية-، والذي يقابل السنة الثانية للهجرة لا يتفق مع العاشر من المحرم من السنة الثانية للهجرة- (العاشر من المحرم يوافق ١٥ يوليو سنة ٦٢٣م، و١٠ تشرين يقع بين يوم ٢٠ سبتمبر و١٠ أكتوبر سنة ٦٢٣م). إذًا كيف أمكن لمحمد- إن كان قد أراد أن يقلد اليهود- أن يختار يومًا غير يوم اليهود؟!** ومن المعروف أن العاشر من تشرين (وهو الشهر السابع من السنة اليهودية) هو يوم الغفران، ويجب صيامه عند اليهود.

ثم إن صيام رمضان كان موجودًا عند العرب قبل الإسلام، ومحمد خلال إقامته بمكة كان يحافظ على هذه الشعيرة العربية قبل الإسلام.

ولكن بعد الهجرة إلى المدينة، وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة أمر بصيام شهر رمضان.

والحقيقة أنه ليس هناك أية علاقة بين الصيام اليهودي والصيام الإسلامي، وهذه هي الفروق بينهما:

(أ) الصيام اليهودي محدد بخمسة أيام بعيدة جدًّا عن بعضها البعض. ويستمر الصيام أربعًا وعشرين ساعة، وعلى العكس من ذلك يستمر صيام المسلمين شهرًا كاملًا.

(ب) وفي يوم صوم اليهود يمزقون ملابسهم، ويلبسون ملابس من الخيش. ويضعون الرماد والطين على رءوسهم. ويزورون المقابر، كما أنه من المحرم عليهم أن ينتقلوا. وليس في الصيام الإسلامي أي من هذا.

(ج) وفي أثناء صيام اليهود يمتنع القيام بأي عمل.

وعلى العكس من ذلك في أثناء الصيام الإسلامي لا يسمح فقط بالعمل، بل يحث عليه بشدة.

● **أما الصوم عند المسيحيين، فليس له علاقة لا بالصوم اليهودي، ولا بالصوم الإسلامي؛ فالصوم المسيحي لا يعد صومًا بالمعني الحقيقي (أي الامتناع عن كل طعام وشراب)، وليس له من الصوم إلا الاسم.**

إذًا، فمن العبث أن نقول- مع «جريم» (١٨٦٤ – ١٩٤٢م) و»شيرنجر» أن فكرة صوم رمضان جاءت إلى محمد من الصوم الكبير عند المسيحيين.

● **وفيما يتعلق بالحج:**

لقد أطلق المستشرقون العنان لخيالهم السقيم في الحديث عن الحج. ويمكن أن نقسمهم في هذا الصدد إلى طائفتين:

الأولى: الذين أرجعوا الحج إلى مصدر يهودي.

والثانية: الذين وجدوا فيه إحياءً لشعائر وثنية قبل الإسلام.

وعلى رأس الطائفة الأولى «راين هريديت دودي»- في كتابه (الإسرائيليون في مكة)- حيث زعم أن الحج يعود إلى مصدر يهودي. وقد أتى «هوتسما» (١٨٥٠ – ١٩٤٣م) الذي قرن بين الحج الإسلامي والأفعال اليهودية، وقارن بين الوقوف بعرفة، ووقوف اليهود عند طور سيناء.

وهذه مقارنة عبثية؛ لأن وقوف الإسرائيليين بجبل سيناء هدفه تذكر صعود موسى على جبل سيناء ولقائه مع يهوا،

واستقباله لألواح الشريعة، ولا ينطبق أي من هذا على الوقوف بجبل عرفة. ومن ناحية أخرى فإن الامتناع عن العلاقات الجنسية في كل الشعائر الدينية، لكل الأديان وليس خاصًّا باليهود، ومن ناحية ثالثة، فإن الإحرام المطلوب من الحاج المسلم هو ملابس مخصصة للحج، وليس ملابس لكل الأيام تغسل في مناسبة واحدة، كما هو الحال عند اليهود خلال وقوفهم بجبل سيناء. واليهود لا يأكلون لحم الجمل.. والجمل أفضل ما يضحي به الحاج المسلم. وليس هناك أي وجه شبه بين رجم إبليس في الحج ورمي كبش الفداء، والقرابين اليهودية تحرق أو يحرق جزء منها، بينما الأضحية في الإسلام يأكل منها صاحبها وعائلته والفقراء. والقول بأن إضاءة المساجد في عرفات والمزدلفة هو تشبه بإضاءة المعبد في عيد التكفير هو السفاهة بعينها، فمعنى هذا أن إضاءة أي كنيسة أو معبد أو مسجد هي تشبه بإضاءة معبد اليهود، كما لو كان يجب أن تمنع أي إضاءة في أي دار من دور العبادة خلال الليل حتى لا تفهم بالتشبه إلى اليهود. وحينما نرى «فينسنك» (١٨٨١ – ١٩٣٩م) يفكر هكذا نعتقد أنه يحلم!

أما الطائفة الثانية: الذين وجدوا في شعائر الحج الإسلامي إحياءً لتقاليد وثنية من قبل الإسلام؛ فلقد أدخل الإسلام على هذه التقاليد تعديلاتٍ مهمة:

– فقبل الإسلام، كانت الإفاضة من عرفات عند غروب الشمس، وفي الإسلام يجب أن تكون بعد غروب الشمس بوقت قصير.

– كذلك فإن الإفاضة من مزدلفة كانت تبدأ قبل الإسلام من طلوع الشمس، وفي الإسلام يجب أن تكون قبل طلوع الشمس، وهو وقت الوقوف بعرفة، ومن خلال هذا الفرق يتضح أن الإسلام حريص على أن يتحاشى لحظة غروب

الشمس وشروقها، بما يستبعد أي شك في عبادة الشمس.

- قبل فتح مكة سنة ٨هـ سنة ٦٣٠م، كان هناك كثير من الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، وربما كان لكل منها عيدها السنوي الخاص بها، مع حج كبير إليه، وتهليل له. ولقد وضع محمد نهاية لكل هذه الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، فيما عدا البيت الحرام بمكة. وهنا، فالكل يجب أن يتوجهوا إليه. ومن هنا تتحقق وحدة العالم الإسلامي، والأمة الإسلامية جمعاء بشكل رمزي.

- وقبل الإسلام لم يكن الحج إلى عرفة شعيرة محددة، وإنما كان محمد هو الذي حدد الشعائر بعد فتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ.

- وقبل الإسلام كان العرب يضحون بالبشر فجاء الإسلام فحرم كل تضحية بشرية.

- والشعر الذي يقصه الحاج المسلم لا يقدم قرباناً إلى أحد، بينما في الأديان الأخرى يقدمون شعورهم قرباناً للآلهة؛ لأنهم يعتقدون أن الشعر يحتل أهمية كبيرة في حياة الرجل، ولذلك فعندما يقدم شعره إلى إلهه يكون كمن قدّم دمه.

- ولقد غير الإسلام مضمون الحج عما كان عليه قبل الإسلام، وذلك بما أضفاه عليه من معنى روحي خالص.

***

-٨-

والفرية الاستشراقية الثامنة، تتعلق بنقد الصحة التاريخية لرسائل الرسول وخطبه وأحاديثه

ففرانتس بـول يشكك في رسائل النبي إلى الملوك والرؤساء، بدعوى «أنه يشكك كثيرًا في أن محمدًا يمكن أن يكون قد فكر أن يصبح دينه عالميًّا».

مع أن آيات السور المكية- التي ذكرها بول نفسه- هي براهين واضحة تهدم قضيته المعاندة للحقيقة.

كما أن الغزات التي كانت في حياة النبي وبعد موته بعام واحد تثبت بما لا يمكن دحضه أن الإسلام في فكر مؤسسة محمد دين عالمي، يخاطب العالم أجمع، وفي كل مكان كانت فتوح وغزوات النبي هدفها إدخال شعوب أخرى من الأرض في الإسلام، وكان قواد هذه الغزوات يعرضون على هذه الشعوب الدخول في الإسلام قبل كل شيء.

ومن أجل هذا يجب أن نصف رأي «بول» بالغباء الشديد.

وهو أن فكرة القيام بمشروع تبشير إسلامي عظيم نشأت من تأثير التقاليد المسيحية.

فكل الحجج التي يسوقها «فرانتس بول» ليثبت أن كتب النبي إلى إمبراطور بيزنطة هرقل، وإمبراطور فارس كسرى، والمقوقس حاكم الإسكندرية، والنجاشي حاكم الحبشة، مزيفة وملفقة، لا تساوي شيئًا، وتنم عن غباء نادر عند «بول».

ويزعم «جاستون وايـت» (١٧٤٦ - ١٨١٤م) أن مكاتبات النبي مع المقوقس ملفقة.. مع أن هدايا المقوقس إلى النبي- ومنها مارية القبطية- ثابتة بكل براهين الثبوت، ولكنه دأب المنطق المتعجرف الذي لا يقوم على شيء والذي

يميز كتابات أغلب المستشرقين في مجال الدراسات المتعلقة بمحمد والقرآن والإسلام.

أما دعوى «جولد تسهير» (١٨٥٠ - ١٩٢١م) أن عددًا من الأحاديث النبوية مقتبس من الأناجيل فهي مردودة؛ لأن الأحاديث محل الطعن غير موجودة في الكتب الست الصحاح، ولكنها موجودة في واحد أو اثنين منها..

كما أن هذه الأحاديث تدعو إلى مبادئ عامة يمكن أن تدخل في باب حكمة الأمم، وليس بالضرورة مقتبسة من أصل مسيحي.

وهكذا تصبح ملاحظات «جولد تسيهر» سطحية وقليلة القيمة من الناحية النقدية، بل لقد أصبحت مثيرة للسخرية عندما يزعم أن سيرة محمد قد كتبت على نموذج الأناجيل»!![1]

***

هكذا غاص الدكتور عبد الرحمن بدوي في محيط الاستشراق والمستشرقين وكشف- وهو الخبير- عن الزيف والكذب والغباء والتهافت الذي ساقهم إليه حقدهم الشديد والدفين على رسول الإسلام ﷺ.

وبذلك ألقى الأضواء الكاشفة على الجذور التاريخية لظاهرة «الإسلاموفوبيا» التي تتصاعد موجاتها في الكثير من دول الغرب هذه الأيام، كما كشف في هذا الكتاب عن باع طويل في علم مقارنة الأديان.

***

لكن شاء الله أن تتحطم كل هذه النصال الحادة على صخرة الإعجاز القرآني، فبعد هذا التاريخ الطويل من التهجم الجاهل والشاذ على القرآن ومقومات الإسلام. ومن الدعاوى التي ركزت على ما سموه اختلاف المصاحف-

(١) د. عبد الرحمن بدوي (دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره) ص ٥، ٦، ٤، ١٦، ١٧، ٤١، ٤٥، ٤٨، ٦٢، ٦٣/ ٦٨، ٧٦، ٧٧، ٨٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥- ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢- ١١٥، ١٦٢- ١٦٦، ٢٠٠ - ٢٠٢، ٢٠٥ - ٢٠٧. ترجمة: كمال جاد الله، طبعة الدار العالمية للكتب والنشر - القاهرة ١٩٩٩م.

مصاحف الصحابة عن المصحف الإمام- اضطرت (دائرة المعارف الإسلامية) التي يحررها المستشرقون إلى إعلان الإفلاس والانهيار لكل هذه الهجمات والتهجمات التي حاولت التشكيك في مصداقية القرآن الكريم، فقالت: «إن كل- وليس بعض- الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف الصحابة موضوعة. والحقيقة هي أن محمدًا كان قد جمع القرآن بالفعل أثناء حياته، وأن القرآن على عهده كان مصاغًا بشكله النهائي.

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، كان المستشرقون قد جمعوا بالفعل هذه الاختلافات، وحللوها، وانتهوا إلا أنه لا قيمة لها، فانهارت الثقة فيها»[(١)].

هذا عن دور الاستشراق الغربي- اليهودي النصراني- في التأسيس لظاهرة الإسلاموفوبيا التي تتصاعد حدتها في واقعنا المعيش.

(١) (دائرة المعارف الإسلامية) ج ٦، ص ٨١٧٩- ٨١٨٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

-٤-

الغرب السياسي والإسلاموفوبيا

أما الغرب السياسي- وتحديدًا الإمبريالي- الطامع في الشرق: موقعه وثرواته- فلقد اجتاحت جيوشه عالم الإسلام إبَّان القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وفي ظل إحكام القبضة الاستعمارية على مقدرات العالم الإسلامي؛ لم تتغير نزعة الإسلاموفوبيا، وإنما الذي تغير هو الأسلوب الذي سلكته سلطات الاستعمار للوصول إلى ذات الأهداف:

تزييف الإسلام، وفتح الأبواب الواسعة للتحلل منه، وإذابته في النموذج الحضاري الغربي الذي تسود فيه الوضعية والمادية والعلمانية التي تنزع القداسة عن المقدسات. فبالوسائل الناعمة، وبالغزو الفكري، وبواسطة النخبة «الوطنية» التي صنعها الاستعمار على عينه، والتي «ضرب» عقولها في المؤسسات الثقافية والتعليمية والفكرية والإعلامية المتغربة، توسل الاستعمار الغربي إلى تحقيق ذات الأهداف: تزييف الإسلام، وتذويب خصوصيته بالعلمانية؛ للخلاص من مناعته الحضارية التي تجعله عصيًّا على الخضوع للهيمنة الغربية.

● ففي لبنان- على سبيل المثال- أنشأت فرنسا- العلمانية! مدارس الإرساليات الكاثوليكية التي تقوم على تخريج جيش من المثقفين العلمانيين الذين يقومون على علمنة الثقافة وتغريب الحضارة وتجريد الإسلام من خصوصيته ومنعته. ولقد وصف القناصل الفرنسيون- ببيروت- هذه المدارس في مراسلاتهم مع الخارجية الفرنسية- بباريس- بأنها «تستهدف جعل سوريا- (أي الشام الكبير) حليفًا أكثر أهمية من مستعمرة! وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة

ومنتجة! وتحويل الموازنة إلى جيش متفان لخدمة فرنسا في كل وقت! وجعل البربرية العربية- (كذا)- تنحني لا إراديًّا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»[١].

● وفي مصر، بدأ تسلل القانون الوضعي الفرنسي إلى المحاكم التجارية في الموانى المصرية، عندما يكون أحد طرفي النزاع أجنبيًّا في سنة ١٨٥٥م، ثم توسعت دوائره لتشمل المنازعات مع الأجانب عمومًا، ثم نظمت فوضى المحاكم القنصلية في المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥م، التي كان قانونها فرنسيًّا، ولغتها فرنسية، وقضاتها أجانب، وهي التي وصفها أحد قضاتها الهولنديين- فان دملن- بأنها «وليدة الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء»[٢].

فلما تم احتلال إنجلترا لمصر سنة ١٨٨٢م؛ عمت بلوى هذا «الاغتصاب القانوني» عموم المحاكم الأهلية المصرية سنة ١٨٨٣م، وتم عزل الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها عن دوائر القانون والتشريع والقضاء- باستثناء محاكم الأحوال الشخصية. ولمركزية مصر في الفكر والثقافة؛ توافد عليها خريجو مدارس الإرساليات الفرنسية من لبنان، فأقاموا فيها المؤسسات الثقافية والفكرية والإعلامية وأصدروا فيها المجلات التي فسرت الدين تفسيرًا ماديًّا، والتي تشيع العلمنة، وتعمل على تذويب خصوصيات الإسلام. وهي المجلات التي وصف أصحابها المجاهد المجدد عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) بأنهم «أعداء الله وأنبياؤه، والأُجراء الذين أنشئوا لهم جريدة- (المقتطف)- جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية، منكرين وجود الإله الخالق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها الأديان»[٣].

(١) من مراسلات القناصل- أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية- باريس- سنوات ١٨٤٠م-١٨٤٢م-١٨٤٨م. محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٧٣. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

(٢) عبد الرحمن الرافعي (عصر إسماعيل ج ٢، ص ٢٤٣، ٢٤٧. طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

(٣) عبد الله النديم - مجلة

كما جرى على أيدي خريجي تلك المـدارس الفرنسية التنصيرية التبشير بنظرية دارون (١٨٠٩ – ١٩٨٢م) عن طريق شبلي شميل (١٨٥٣– ١٩١٧م) لإشاعة التفسير المادي لقصة الخلق، والدعوة– بواسطة أمين شميل (١٨٢٨ – ١٨٩٧م) لاستبدال العاميات بالفصحى، لتمزيق الوحدة اللغوية للأمة، وإنزال القرآن العربي عن عرش التأثير اللغوي الجامع، وفتح الأبواب لاستبدال القطرية والعنصرية والطائفية بوحدة أمة الإسلام.

● وفي المغرب العربي، أعلن المستعمرون الفرنسيون: «أن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد العربية، وهذا يخوِّلنا اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في هذه البلاد..! ويجب جمع العادات البربرية لئلا تضمحل في الشرع الإسلامي. كذلك يجب الفصل بين الإسلام والاستعراب؛ فالعربية هي رائد الإسلام؛ لأنها تُتَعَلَّم من القرآن» وإذا سادت الفرنسية بدلًا من العربية، وأصبحت لغة التفاهم، فلن يهمنا كثيرًا أن تضم الديانة الإسلامية الشعب كله، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها، كما يقيم الكاثوليك القداديس باللغات اللاتينية والإغريقية والعبرانية»![٢]

● أما الجزائر– التي احتلها الفرنسيون سنة ١٨٣٠م– ويومها ذهب الملك «شارل العاشر» (١٧٥٧ – ١٨٣٦م) إلى كنيسة باريس ليشكر الـرب، فاستقبله (المطران)، وخطب بين يديه مهنئًا، وقال: «إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية، وما زالت كذلك»![٣] فإن قادة فرنسا– الدينيين والسياسيين والعسكريين– قد أعلنوا– في الجزائر– ذات المقاصد العليا للإسلاموفوبيا:

(الأستاذ) ـ القاهرة ـ عدد ٣٩ص ٩٢٣، ٩٢٤ـ بتاريخ ٧ ذي القعدة سنة ١٣١٠هـ ـ مايو ١٨٩٣م.

(٢) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٥٧ – ٥٩.

(٣) رفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) ج ٢ ص ٢٢٠، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٣م، وطبعة مكتبة الأسرة ـ القاهرة ٢٠١٠م.

- جعل الفرنسية لغتها القومية، بدلًا من العربية.
- وتنصير الجزائريين.
- وتوطين الأوروبيين في الجزائر وجعلها- مع شمال إفريقيا- مهجرًا ومستوطنًا للشعوب الأوروبية ودفع السكان الأصليين إلى الصحراء الكبرى- في الجنوب- حتى يفنوا هناك!. وذلك حتى تكون الجزائر بلدًا جديدًا، يتدفق إليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا!.

ولما مر قرن على هذا الاحتلال، احتفل الفرنسيون سنة ١٩٣٠ بهذه الذكرى وخطب الكاردينال «لافيجري»؛ فقال: «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»!. كما أعلنوا أن هذا الاحتفال ليس بمرور قرن على وجودهم بالجزائر، فلقد سبق للرومان أن قاموا بها ثلاثة قرون، ثم أخرجهم الإسلام منها لذلك؛ فإنهم إنما يحتفلون بتشييع جنازة الإسلام في الجزائر»![(١)]

هكذا فتحت سلطات الاحتلال الأبــواب الواسعة للأساليب الناعمة- أساليب العلمنة والتغريب والفكر المادي- لتحقيق مقاصد الإسلاموفوبيا، فحققت بذلك أكثر وأكبر وأخطر مما حققته فجاجة افتراءات المستشرقين ورجال الكهنوت.

ولقد رجّح كفة هذا «الغزو الناعم» انشغال أوروبا الاستعمارية إبّان أغلب عقود القرن العشرين بصراعاتها الداخلية، بين الليبرالية الرأسمالية وبين الشيوعية الماركسية وبين هذين المعسكرين وبين النازية والفاشية. الأمر الذي جعل الغرب السياسي في حاجة إلى توظيف الإسلام في هذه الصراعات فكان الأسلوب الناعم للإسلاموفوبيا هو الأنسب خلال عقود الانقسام الأيديولوجي الغربي في القرن العشرين.

(١) د. محمود قاسم (الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية) ص ١٠، ١١، ٢٢. طبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥م. ود. محمد عمارة (مسلمون ثوار) ص ٤٦٥، ٤٧٠، طبعة دار الشروق- القاهرة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

-٥-

وفي واقعنا المعاصر

فلما زالت هذه التناقضات الداخلية في الحضارة الأوروبية، وتوحدت قبضتها حول الليبرالية الرأسمالية، بسقوط الشيوعية أوائل سنة ١٩٩١م. عاد الغرب السياسي ليتخذ من الإسلام عدوًّا، أحله محل الخطر الشيوعي، وعبر- يومئذ- عن انزعاجه من صعود تيار اليقظة الإسلامية، الذي استفاد من سقوط نماذج التحديث الغربية- وخاصة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م.

ففي واحدة من الدراسات الهامة التي نشرتها المجلة الفصلية المتخصصة (شئون دولية)- الصادرة في كمبردج- بإنجلترا- عدد يناير ١٩٩١م- أي فور سقوط الشيوعية- جاء في «الملف» الذي خصصته لدراسة «الإسلام والمسيحية» و»الإسلام والماركسية» والذي كتبه علماء الاجتماع «د. إدورد مورتيمر»، و»د. أرنست جيلنر»، هذه الفقرات التي أعلنت عن بدء الغرب السياسي مرحلة «خشنة» من مراحل الإسلاموفوبيا. لقد جاء في هذه الدراسة:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف وتهديد يحل محل التهديد السوفيتي، وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزًا في المتناول؛ فالإسلام رافض لأي تمييز بين ما لله وما لقيصر، وهو لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين في دولة علمانية. إنه استثناء مدهش وتام جدًّا من النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يُحل العلمنة محل الإيمان الديني. فلم تتم إية علمنة في عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هي سيطرة قوية، بل هي أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت. إنه مقاوم للعلمنة في ظل مختلف النظم السياسية-

راديكالية وتقليدية وبين بين-. وعمليات الإصلاح الذاتي تتم في العالم الإسلامي باسم الإيمان الديني، وليس على أنقاض هذا الإيمان. الأمر الذي مكن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي جعلت مجتمعات أخرى ضحية للاضطراب والإذلال، بسبب إضفاء الغرب الطابع المثالي على نموذجه في التحديث، الأمر الذي جعلها تقف منه موقف المحاكاة والتقليد.

ذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.

ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدّ فعلي وحقيقي للثقافة العلمانية الغربية (ثقافة الشك واللاأدرية ثقافة الأخصائيين الذين لا روح لهم والعلماء الذين لا قلوب لهم) كان الإسلام، من بين ثقافات الجنوب، الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة على الإسلام»!!

هكذا بدأت المرحلة المعاصرة- مرحلة الخشونة- في الإسلاموفوبيا.. عندما سقطت الشيوعية، وظن الغرب أن ليبراليته الرأسمالية هي «نهاية التاريخ»، وإذا به يكتشف أن الخيار الإسلامي قد نما وتصاعد، وأصبح المهدد الأكبر لتغريب العالم وذوبانه في النموذج العلماني الغربي.

وحول ذات التوقيت- نهايات القرن العشرين- أعلن الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» (١٩١٣ - ١٩٩٤م)- وهو مفكر استراتيجي- ضرورة اجتماع العالم- بتياراته المختلفة- لمحاربة الأصوليين الإسلاميين الذين هم- برأيه-:

- «المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضي».
- «والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية».
- «وينادون بأن الإسلام دين ودولة».
- «وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم

يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»[١].

وعلى ذات الـدرب تتابعت تحليلات كبار المفكرين الاستراتيجيين الغربيين، تعلن الحرب على اليقظة الإسلامية، وتدعو إلى حرب داخل الإسلام؛ كي يتنازل عن خياره في التجديد والنهوض، ويقبل بالعلمانية والذوبان في النموذج الرأسمالي الغربي، الذي رأوه «نهاية التاريخ»!.

وفي هذا الإطار كتب «صموئيل هنتجتون» (١٩٢٧ – ٢٠٠٨م) و»فرنسيس فوكوياما»: «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة في السياسة الدولية؛ فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولّد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسة الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: العقيدة الإسلامية الأصولية التي ترفض الاستهلاكية الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحي» دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله– فصل الدين عن الدولة»[٢].

ولقد فتحت هذه الدراسات الاستراتيجية الأبواب الواسعة لأشرس الحملات الغربية على الإسلام وأمته وحضارته.

وإذا شئنا الإشارة– مجرد الإشارة– لأمثلة– مجرد أمثلة– فإننا نقف عند:

قول «توني بلير»– رئيس وزراء إنجلترا– في ١٧ سبتمبر ٢٠٠١م: «إن هذه الحملة هي «حرب المدنية والحضارة (الغربية) على البربرية في الشرق».

وقول «سلفيو برلسكوني»– رئيس وزراء إيطاليا– في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م: «إن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية، ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام،

(١) نيكسون (الفرصة السانحة) ص ١٤٠.ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة دار الهلال ـ القاهرة ١٩٩٢م.

(٢) هنتجتون ـ وفوكوياما: (نيوزويك) ـ الأمريكية ـ العدد السنوي ـ ديسمبر ٢٠٠١م – فبراير ٢٠٠٢م.

الذي يجب أن يُهزم. وإن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب».

وقول السيناتور الأمريكي «جوزيف ليبرمان»- وهو مرشح سابق لمنصب نائب الرئيس-: «إنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية! إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التي تراها ضرورية؛ فشعارات أمريكا لا تنتهي عند حدودها، بل تتعداها إلى الدول الأخرى».

وقول «مادلين أولبرايت»- وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة-: «إننا معشر الأمريكيين أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب».

وقول الكاتب الأمريكي- الصهيوني- «توماس فريدمان»- في نوفمبر ٢٠٠١م: «إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس. يجب أن نتسلح بالكتب المدرسية لتكوين جيل جديد يقبل سياساتنا كما يجب شطائرنا. وإلى أن يحدث ذلك لن نجد لنا أصدقاء هناك».

ونشرت «الهيرالد تريبيون الدولية» للكاتب «ستانلي. أ. فايس»: «إن حقيقة الحرب على الإرهاب تكمن في: هل ستقوم الدول الإسلامية باتباع نموذج تركيا العلمانية؟ نموذج «أتاتورك» الذي أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها؟ أم أن هذه الدول ستنتهج منهج الأصولية الإسلامية؟».

وصرحت «مارجريت تاتشر»- رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق-: «بأن المسلمين الذين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب؛ هم أعداء أمريكا وأعداؤنا. وإن هذه الأصولية الإسلامية هي مثل البولشفية- في الماضي- أيديولوجية عدائية تتطلب منا تبني استراتيجية طويلة المدى ليتسنى هزيمتها».

وفي فبراير ٢٠٠٢م، صرح وزير العدل الأمريكي «جون أشكروفت»: «بأن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه

ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله».

وخطب الجنرال الأمريكي «وليام. ج. بوكين»- نائب وزير الدفاع الأمريكي- في إحدى الكنائس- وهو بزيه العسكري- في أكتوبر ٢٠٠٣م فقال: «إن إلهنا أكبر من إله المسلمين. إن إلهنا إله حقيقي، وإله المسلمين صنم. وإنهم يكرهون الولايات المتحدة الأمريكية لأنها أمة مسيحية/ يهودية، وحربنا معهم هي حرب على الشيطان، وإن دين الإسلام هو دين شيطاني. ومحمد هو الشيطان نفسه»!.

ولقد رفض وزير الدفاع الأمريكي «رامسفيلد» الاعتذار عن خطبة الجنرال «بوكين»، معتبرًا إياها حرية رأي وتعبير. ولقد قاد الجنرال «بوكين» هذا فرقة الاغتيالات التي دربها الإسرائيليون- والتي قامت باغتيال العلماء وقادة الجيش في العراق!.

وفي مارس ٢٠٠٢ م صرح وزير الداخلية الألماني «أوتو شيلي»: «بأن عقيدة الإسلام هي هرطقة وضلال».

وفي مارس ٢٠٠٣م صرح الرئيس الأمريكي «بوش» الصغير: «بأن الحرب الأمريكية على العراق هي حرب عادلة بالمقاييس المسيحية التي حددها القديس «أوغسطين» (٣٥٤ – ٤٣٠م) والقديس «توما الأكويني» (١٢٢٥ – ١٢٧٤م) و»مارتن لوثر» (١٤٨٣ – ١٥٤٦م).

وفي سنة ٢٠٠٦م نشر بابا الفاتيكان السابق «بنديكتس السادس عشر» كتابه (بلا جـذور. الغرب- النسبية- المسيحية- الإسلام) في نيويورك- ومارس فيه التخويف من الإسلام، معلنًا: «إنه يخشى أن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين»!

كما نـشرت له «لوموند»- الفرنسية- تصريحًا في ١٨/ ٤/ ٢٠٠٦م- يقول فيه: «إن الإسلام ليس دين توحيد

على نمط اليهودية والمسيحية، ولا ينتمي إلى الوحي نفسه الذي تنتمي إليه اليهودية والمسيحية».

وفي ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م ألقى محاضرة بجامعة «ريجنسبورج» الألمانية- «اتهم فيها الإيمان الإسلامي بأنه «وثني.. لا عقلاني» وقال فيها: إن رسول الإسلام لم يأت بخير. وإنه قد أمر بنشر دينه بالسيف..».

وادّعى أن القرآن قد أضيفت إليه «تعليمات أوامر اللئام التي تحض على الإكراه في الدين!

وفي سبتمبر ٢٠٠٥م نشرت الرسوم الدانماركية، التي تصور رسول الإسلام ﷺ إرهابيًّا، يضع على رأسه عمامة هي قنبلة موقوتة!.

وفي فبراير ٢٠٠٨م، دعا وزير الداخلية الألماني إلى إعادة نشر هذه الرسوم في صحافة الاتحاد الأوروبي!. وفي أبريل ٢٠٠٩م أعيد نشر هذه الرسوم من قبل مؤسسة حرية الصحافة في الاتحاد الأوروبي. وفي مايو ٢٠١٠م احتفل بمرور خمس سنوات على نشر هذه الرسوم؛ فعُقدت- بالدانمارك- مسابقة للرسوم المسيئة إلى رسول الإسلام.

وفي ٢٠٠٨م عرضت- في هولندا- أفلام مسيئة للقرآن ولرسول الإسلام ﷺ فيلم «فتنة القرآن» وفيلم «هتلر»!.

وفي سنة ٢٠٠٧ م منحت ملكة إنجلترا «وسام الفارس» للكاتب «سلمان رشدي» الذي ركز في كتاباته على الإساءة إلى رسول الإسلام وإلى بيت النبوة.

وفي يناير ٢٠٠٨م منح الرئيس الفرنسي «نيكولاي ساركوزي» جائزة «سيمون دي بوفوار» (١٩٠٨ - ١٩٨٦) للكاتبة البنجلاديشية «تسليمة نسرين» التي اشتهرت واحترفت التهجم على الإسلام.

وفي ٨ ديسمبر ٢٠١٠ منحت مستشارة ألمانيا جائزة حرية الصحافة للرسام الدانماركي صاحب الرسوم المسيئة للرسول، بمناسبة مرور خمس سنوات على نشرها!

وفي سنة ٢٠٠٧م صدر– بإنجلترا– تقرير أعدته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات والخبراء في الإعلام جاء فيه: «إن الصورة السائدة عن الإسلام في الغرب هو أنه يماثل النازية والفاشية والشيوعية. وإن ازدراء الإسلام، وتشبيهه بالشيطان ليس مقصورًا على الصحافة الصغيرة والشعبية، بل إن صورته هذه هي السائدة في الصحف الكبرى وفي الكتب والمحاضرات الجامعية.

وفي ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٩م تم الاستفتاء السويسري على حظر بناء المآذن للمساجد بنسبة ٥٧٪ وصُوِّرت المآذن– في حملة هذا الاستفتاء– في صورة الحراب والصواريخ!

وفي ٣ ديسمبر ٢٠٠٩م تم استطلاع رأي في فرنسا حول المآذن والمساجد؛ فصوت ٤٨٪ ضد بناء المآذن وصوت ٤١٪ ضد بناء المساجد.

وفي مايو ٢٠١٠م صدر تشريع فرنسي بتحريم ارتداء النقاب، ومن قبله كان قد تم تحريم ارتـداء الحجاب بالمدارس والمؤسسات الحكومية.

وفي ١٦ أكتوبر ٢٠١٠م أعلنت المستشارة الألمانية «أنجيلا ميركل» عن «فشل تجربة التنوع الثقافي في أوروبا ، وضرورة التزام المهاجرين في ألمانيا بالقيم المسيحية»!

وبعد الردة على الربيع العربي ٢٠١١ م، زادت في الغرب حمى الإسلاموفوبيا، مستغلة دموية حركات العنف ـ التي ظهرت بعد هذه الردة ـ بل ونقلت ـ بواسطة الإعلام ـ هذه الحمى إلى داخل بعض المجتمعات الإسلامية!..

***

هكذا تفجر – ويتفجر – في واقعنا المعاصر– طوفان الإسلاموفوبيا الذي سبق وتأسس في الثقافة الغربية إبَّان الحروب الصليبية والذي أسهم فيه الاستشراق والأدباء والشعراء والفنانون والإعلاميون؛ برعاية وقيادة المؤسسات الدينية والسياسية والثقافية.. على امتداد ذلك التاريخ الطويل.

-٦-

موت الغرب الإمبريالي.. ونهاية الإسلاموفوبيا

وإذا كان اشتداد الظلام هو البشير بانبثاق نور الفجر..

وإذا كانت شدة الضغط تفضي إلى التلاحم؛ فإن صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا إلى ذروة العنف والخشونة التي نراها الآن- في الفكر والإعلام وفي الحروب والدماء التي تغطي عالم الإسلام- هو المؤذن- إن شاء الله- بطي صفحة هذه الظاهرة التي حكمت وتحكمت في علاقة الغرب بالشرق على امتداد قرون التاريخ المكتوب بين هذين العالمين وهاتين الحضارتين.

إن أوروبا التي مثلت قلعة المسيحية بعد ظهور الإسلام والتي قادت الحروب الصليبية وحملات التنصير للعالم الإسلامي- لا يؤمن من سكانها بوجود إله- حتى ولو لم يعبدوه! - إلا أقل من ١٤٪!!

وإن غيبة الإيمان الديني عن أهلها، الذين يتمتعون بأعلى مستويات المعيشة المادية، قد جعلتهم يعانون أعلى مستويات القلق والاكتئاب والانتحار!!

وإن فرنسا التي أعلنت سنة ١٩٣٠م أنها تشيّع جنازة الإسـلام في الجزائر؛ هي التي يتم تشييع المسيحية في ربوعها!

فالذين يذهبون إلى القدّاس مرة في الأسبوع هم أقل من ٥٪ من سكان «بنت الكاثوليكية.. وأكبر دولها»!.. أي نصف عدد المسلمين الذين يواظبون على أداء صلاة الجمعة في فرنسا!

وفي جمهورية التشيك، لا يذهب إلى القدّاس الأسبوعي إلا أقل من ٣٪ من السكان!

وفي أمريكا، انخفض حضور قداس الأحد الكاثوليكي بنسبة ٤٠٪ عن خمسينيات القرن العشرين، وثلثهم هم الذين يواظبون على حضوره أسبوعيًّا، وكانوا ضعفي هذا العدد قبل جيل من الزمان! وعند الإنجيليين الأمريكان انخفض حضور القداس الأسبوعي ٣٠٪ عن ستينيات القرن العشرين.

و٧٠٪ من كاثوليك أمريكا يطلبون السماح باستخدام موانع الحمل- على خلاف موقف الكنيسة!.

وفي روما- حيث الفاتيكان- يوافق ٧٠٪ من الكاثوليك على ممارسة الجنس قبل الزواج!

وفي استطلاع أجرته مؤسسة «جالوب» في أبريل ٢٠٠٥م- ظهر أن ٧٤٪ من الكاثوليك يتصرفون في المسائل الأخلاقية بناء على ضمائرهم، وعلى عكس تعاليم الكنيسة، ولا يلتزم بتعاليم الكنيسة- في المسائل الأخلاقية- سوى ٢٠٪ فقط!

وفي إيطاليا تتحول الكنائس إلى مطاعم وملاهي. ولقد غنت «مادونا» في كنيسة تاريخية، بعد أن تحولت إلى مطعم، وتحول «المذبح» إلى «فرن للبيتزا»!

وفي ألمانيا، توقف القدّاس في نحو ثلث كنائس «إبرشية أيسن» بسبب قلة الزوار، وهناك ١٠,٠٠٠ عشرة آلاف كنيسة مرشحة للإغلاق وللبيع لأغراض أخرى!.

وتفقد الكنائس الألمانية- الإنجيلية والكاثوليكية- سنويًّا أكثر من ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) من أتباعها.

وفي إنجلترا، لا يحضر القدّاس الأسبوعي سوى أقل من مليون فقط!. ولقد صنفت ١٠٪ من كنائسها رسميًّا باعتبارها زائدة عن الحاجة ومرشحة للبيع مطاعم وملاهي وحتى علب ليل!. وأعلن الكاردينال «كورمك ميرفي»

رئيس الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا وويلز: «أن المسيحية أوشكت على الانحسار في بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثرًا في حياة الناس»!

وكثير من الكنائس الأوروبية وغير الأوروبية تزوج الشواذ- المثليين- وبها قساوسة شواذ. والقوانين التي تحكم الاتحاد الأوروبي والتي هي شرط في دخوله تعتبر الشذوذ الجنسي حقًّا أصيلًا من حقوق الإنسان- تفرض العقوبات على الرافضين له!- وللشواذ مؤتمرات سنوية ومظاهرات احتفالية تجوب الشوارع والميادين في كثير من المدن الأوروبية».

ولقد شرّعت حكومة بلدية «بيونس إيرس»- عاصمة الأرجنتين الكاثوليكية- زواج المثليين!

وفي أمريكا يواجه أكثر من ٣,٠٠٠ قسيسًا تهمَ التحرش الجنسي بالأطفال!. ولقد شاعت الانحرافات الجنسية بين القساوسة والرهبان- وخاصة في الاعتداء على الأطفال!- حتى لقد أفلست كثير من الإبراشيات بسبب التعويضات التي تدفعها لضحايا هذه الاعتداءات الجنسية!. ولقد عقد الفاتيكان في نوفمبر ٢٠١٠م مـؤتمرًا للكرادلة لمناقشة الاعتداءات والفضائح الجنسية لكرادلته وقساوسته!

وفي فرنسا كثير من الكنائس مغلقة والمسلمون يطالبون بشرائها لتتحول إلى مساجد. ولقد نشرت مجلة «فالور أكتويل» نداءً وقع عليه عدد كبير من الشخصيات السياسية والثقافية والإعلامية- بينهم الرئيس الأسبق نيكولاي ساركوزي- يعارضون تحويل الكنائس المغلقة والفارغة والقديمة إلى مساجد، بدعوى تمثيلها «تاريخ فرنسا القديم، وجزء من ذكرياتها الكاثوليكية»!

وفي استطلاع للرأي أجرته إذاعة «أوروبا» صوت ٦٧٪ من الفرنسيين مع معارضة تحويل الكنائس القديمة إلى مساجد!.

وفي كوبنهاجن- عاصمة الدانمارك- بلد الرسوم المسيئة لرسول الإسلام- صلى الله عليه وسلم- والمظاهرات والأفلام ضد «أسلمة أوروبا»- عرضت عشر كنائس للبيع. وصرح «كاي بولمان»- الأمين العام للكنائس في الدانمارك- أنه إذا لم تستعمل الكنيسة للعبادة، فالأجدر أن تستعمل كاصطبل للخنازير»!- في محاولة لحظر بيعها مساجد للمسلمين الدانماركيين!.

وفي جمهورية التشيك، الاتجاه إلى بيع نصف كنائسها الـ ١٠,٠٠٠ بسبب قلة الزوار!. ولقد بيعت كنيسة القديس ميخائيل- في وسط براغ- والتي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر، وتحولت إلى نادي للعراة وموسيقى التكنو!.. وبيع ١٥,٠٠٠ منزلًا للقساوسة!

وفي روسيا، يعتبر ٩٠٪ من سكانها أنفسهم مسيحيين، لكن لا يصلي منهم سوى ١٠٪ فقط. و٣٠٪ من هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين لا يؤمنون بقصص الأناجيل. ولا حتى بوجود إلـه؟! ويسمون أنفسهم: أرثوذكس ملحدون!!.

تلك مؤشرات- مجرد مؤشرات- إلى الأرقام التي تتزايد يومًا بعد يوم- والتي تعلن عن تشييع جنازة المسيحية في أوروبا!. تلك التي مثلت- بعد ظهور الإسلام- قلب العالم المسيحي والتي حلمت وعملت على تشييع جنازة الإسلام في الشرق الإسلامي!.

***

وإذا كانت أوروبا تتحول إلى فراغ مسيحي، تم فيه تشييع جنازة المسيحية؛ فإن الإسلام هو الوارث الذي يتمدد في هذا الفراغ.

فلقد زادت معدلات الالتفات إلى الإسلام، ومعدلات الدخول فيه عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م؛ فأصبح معدل الذين يدخلون فيه- بأمريكا- سنويًّا أكثر من ٢٠,٠٠٠ وفي أوروبا أكثر من ٢٣,٠٠٠.

وفي سنة ٢٠٠٧م أسلم في فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالي من بلجيكا والنمسا أكثر من ١٤٤,٠٠٠- منهم ٤٠,٠٠٠ في ألمانيا.

وفي ٢٠٠٥ م و٢٠٠٦م زاد عدد المساجد في ألمانيا من ١٤١ إلى ١٨٧ ومساجد ألمانيا منها ١٥٩ مسجدًا ذات مآذن و٢,٦٠٠ بدون مآذن و١٨٤ مسجدًا تحت الإنشاء.

وفي إنجلترا يبلغ تعداد المسلمين ٢,٧٠٠- سنة ٢٠١١م- والمتوقع أن يصبحوا في سنة ٢٠٢١م ٤,٠٠٠,٠٠٠ وفي سنة ٢٠٣١م ٨,٠٠٠,٠٠٠ وربما ١٥,٠٠٠,٠٠٠ بعد ٣٠ سنة من الآن. ولقد انتخب للندن عمدة مسلم- صديق خان في ٦ مايو ٢٠١٦م.

على حين يتوقعون ألا يُسمع طنين أجراس الكنيسة في لندن بعد ثلاثين عامًا. وعندها سيصبح عدد المسلمين الملتزمين أكبر من عدد الأنجيليكانيين الملتزمين!. ومن يصنفون أنفسهم مسيحيين في إنجلترا هم مسيحيون بالاسم!. ومع تزايد التحول إلى الإسلام يتزايد التحول إلى الإلحاد؛ فلقد قفز عدد الملحدين بين الإنجليز من ٧,٠٠٠,٠٠٠ سنة ٢٠٠١م إلى ٤,١٠٠,٠٠٠ ـ أي أكثر من الضعف ـ سنة ٢٠١١م ـ أي أنهم يمثلون ٤٨٪ من سكان لندن وحدها!. ومن المنتظر أن يبلغ عدد الملحدين في سنة ٢٠٤١م ٧٧,٠٠٠,٠٠٠.

فالمسيحية تموت ومن لا يهتدي إلى الإسـلام- الذي يحاربونه- يسقط في براثن الإلحاد!.

وفي المواليد- الإنجليز- سبق اسم «محمد» اسم «جورج» في مواليد ٢٠٠٦م واحتل المرتبة الأولى- قبل اسم «جاك» و»هاري» في مواليد ٢٠٠٩م فلقد أطلق- سنة ٢٠٠٩م- على ٧,٥٤٩ طفلاً من جملة المواليد- في إنجلترا وويلز- البالغ عددهم ٧٠٦,٢٤٨ طفلاً. وعلى حين زاد عدد المسلمين نصف مليون في أربع سنوات (٢٠٠٤ – ٢٠٠٨م) نقص عدد المسيحيين- في نفس المدة- مليونين!. وذلك بسبب الزواج المثلي، وتفكك الأسرة بفعل العلمنة.

كما أن الشريحة الأكبر من المسلمين تتكون من صغار السن، بينما الشريحة الأكبر من المسيحيين فوق سن السبعين!.

وفي فرنسا، يبلغ عدد المسلمين ٦,٠٠٠,٠٠٠ حسب الإحصاء الرسمي و٨,٠٠٠,٠٠٠ حسب إحصاءات الجمعيات الإسلامية، وفيها أكثر من ١,٠٨٠ مسجدًا وزاوية. ويعتنق الإسلام فيها- سنويًّا- أكثر من ٣,٦٠٠ فرنسي.

وفي ألمانيا تزيد نسبة الوفيات عن نسبة المواليد، وعدد المسلمين فيها ٣٪ من السكان، لكن مواليدهم ١٠٪ من المواليد!

وفي هولندا، يبلغ عدد المسلمين ١,٠٠٠,٠٠٠ ـ من جملة السكان البالغ عددهم اثني عشر مليونًا. ولقد نفدت كل نسخ المصاحف الإلكترونية يوم عرض فيلم «فتنة»- المعادي للقرآن الكريم!. ولقد انتخب عمدة مسلم لمدينة «نوتردام»- أكبر الموانى الهولندية. و٥٠٪ من المواليد في هولندا مسلمون!.

وفي بلجيكا ٢٥٪ من السكان مسلمون و٥٠٪ من المواليد مسلمون وسيشكل المسلمون غالبية سكان «بروكسيل»- عاصمة الاتحاد الأوروبي- بعد أقل من عشرين عامًا. ومنذ سنة ٢٠٠١م أصبح اسم محمد الأكثر انتشارًا بين مواليد بروكسل. ولقد تضاعف عدد المسلمين في بلجيكا فيما بين ١٩٩٥م و ٢٠٠٥ فبلغ ثلاثة أرباع المليون- من جملة السكان البالغة عشرة ملايين.

وفي كرواتيا يهجر الشباب الكنيسة بأعداد كبيرة ويقبلون على الإسلام.

وفي روسيا الاتحادية، كان عدد المساجد عند سقوط الشيوعية سنة ١٩٩١م ٩٨ مسجدًا. فبلغ سنة ٢٠٠٨م ٧,٢٠٠ مسجدًا ويبلغ عدد المسلمين في روسيا ٢٣,٠٠٠,٠٠٠- أي واحد من كل خمسة. ومن المتوقع أن يصبح المسلمون أغلبية في روسيا الاتحادية سنة ٢٠٥٠م.

وفي أمريكا اللاتينية، اعتنق الإسلام ٢٠٠,٠٠٠ في سنة ٢٠٠٧م وحدها؛ حيث يهرب ٤٠٪ من الشباب الكاثوليك من الكنيسة!.

* * *

وإذا كانت هذه المؤشرات دليلًا على موت المسيحية في الغرب- وخاصة في أوروبا- فإنها دليل كذلك على اتجاه الجنس والعنصر الأبيض إلى الانقراض- ولقد كان «العنصر.. والعنصرية» مع «النصرانية الغربية» هما جناحا الإسلاموفوبيا على مر التاريخ. لقد أعلنوا في القرن التاسع عشر- العمل على تشييع جنازة الإسلام- في بلاده، والعمل على تصدير الفائض البشري الأوروبي لاستعمار الشرق استعمارًا استيطانيًّا، ودفع العرب إلى الصحاري حتى يفنوا هناك!. لكن الذي حدث هو العكس:

ففي إحصاءات حديثة.. تقول تقارير وزارة الخارجية الأمريكية والدانماركية والبلجيكية سنة ٢٠٠٨ – ٢٠٠٩م:

– إن أوروبا وأمريكا واليابان ستصبح «دار مسنين» سنة ٢٠٥٠م.

– وأن الجنس الأبيض الذي قاد الإسلاموفوبيا على مر التاريخ- مقبل على الانقراض.! إذ كان يمثل سنة ١٩١٥ ٢٨٪ من سكان العالم فتراجع سنة ٢٠١٥ إلى نسبة ١٨٪ من سكان العالم.

– وأن تعداد المسلمين في أوروبا اليوم- وهو ٥٢,٠٠٠,٠٠٠ مليونًا- سيرتفع إلى ١٠٤ ملايين خلال العشرين سنة المقبلة.

_ وفي إنجلترا، تراجع عدد المسيحيين إلى ٣٣ مليونًا- أي ٥٩٪ من السكان البيض- بعد أن كان ٧١,٧٪ في السنوات العشر الماضية.

بينما زاد عدد المسلمين إلى ٢,٧ مليون نسمة- أي ٥٪ من السكان. وزاد عدد الملحدين إلى ٢٥٪ من السكان بعد أن كانوا لا يتجاوزون ١٤,٨٪ من السكان.

وخسرت الكنيسة- ما بين سنة ٢٠١٢م وسنة ٢٠١٤م- ١,٧ مليونًا من أتباعها.

وفي سنة ١٩٨٣م كانت نسبة البالغين المسيحيين ٤٠٪ من السكان؛ فتناقصت إلى ١٧٪ من السكان سنة ٢٠١٤م وذلك لحساب زيادة نسبة المسنين!.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان عدد المسلمين سنة ١٩٧٠م ١٠٠,٠٠٠ مسلم؛ فوصل العدد سنة ٢٠٠٨م إلى ٩,٠٠٠,٠٠٠ مسلم.

أما أوروبا، فسيزيد عدد المسلمين بها من ٥٢,٠٠٠,٠٠٠ مليونًا إلى ١٠٤ ملايين خلال العشرين سنة المقبلة.

وفي فرنسا- التي تسمى «بنت الكاثوليكية وأكبر بلاد الكاثوليكية»- فإن معدل الإنجاب فيها هو ٨ , ١ بينما معدل الإنجاب للمسلمين الفرنسيين هو ١ , ٨ ؟!.

وحتى في إسرائيل- ذيل الإمبريالية الغربية وممثل الإسلاموفوبيا- فإن اسم محمد هو الأكثر انتشارًا بين المواليد فلقد حمله سنة ٢٠١٤ م ٢ , ٦٥٠ مولودًا فزاد على اسم ناعوم الأكثر شعبية في إسرائيل!

***

تلك مـؤشرات- مجرد مـؤشرات- إلى الحقائق التي تجسدها لغة الأرقام- والشاهدة على أن واقعنا المعاصر، الذي يشهد أعلى مستويات عنف الإسلاموفوبيا- فكرًا وحروبًا وتشريدًا- هو البشير بموت هذه الظاهرة، التي مثلت عداء الغرب للشرق عبر قرون ذلك التاريخ من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هذا الواقع المعيش في القرن الواحد والعشرين.

لقد أعلن بابا الفاتيكان السابق «بنديكتس السادس عشر» عن خوفه من «أن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين».

وقال الكاردينال «بول بوبار»- مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الثقافي الفاتيكاني-: «إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا. وإن العالم الإسلامي قد بدأ يبسط سيطرته؛ فهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية. فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك فتحًا جديدًا لأوروبا»؟!

فقط علينا، ونحن في قمة الاستضعاف، أن نتذكر قول رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهو- أيضًا- في قمة الاستضعاف: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وعلينا- كذلك- أن نسلط الأضواء على «نصف الكوب المليء»، وذلك حتى لا يتطرق إلينا اليأس- في لحظات الاستضعاف- فننصرف عن الأخذ بأسباب القوة والتقدم والنهوض.

وعلينا- مع ذلك كله- أن نتدبر قول الله- سبحانه وتعالى- ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٤)

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢، ٣٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٦، ٣٧).[1]

(١) انظر في الحقائق والأرقام والإحصاءات التي أوردناها في الفصلين (٥) و(٦): «نيوزويك» عدد ٢٧- ٢ - ٢٠٠٧م وعدد ٢٩-٧-٢٠٠٨م. وصحيفة الدعوة الإسلامية ـ ليبيا ـ عدد ١ -٨-٢٠٠٧م وهي تنقل عن صحيفة «أويست فرانس» ـ الفرنسية ـ. وصحيفة «الدستور» ـ المصرية ـ عدد ٢٢-٩-٢٠٠٧م .. وهي تنقل عن «واشنطن بوست». وصحيفة «الرسالة» ـ السعودية ـ ملحق «المدينة» عدد ٢٦-١٠- ٢٠٠٧م، وعدد ٩-٥-٢٠٠٨م، وعدد ١-٨-٢٠٠٨مـ وهي تنقل عن صحيفة «بيلد الألمانية». وصحيفة «البصائر» ـ الجزائرية ـ عدد ٤-١٢-٢٠٠٦م. وصحيفة «الشرق الأوسط» ـ لندن ـ عدد ١، ١٣-١٠-١٩٩٩، وعدد ٣١-٣-٢٠٠٨، وعدد ٢٢-٩-٢٠٠٨م، وعدد ٩-٤-٢٠٠٨م. وصحيفة «الحياة» ـ لندن ـ عدد ١٩-١٠-٢٠٠٧م، وعدد ٢٦-٤-٢٠٠٨م، وصحيفة «الأهرام» عدد ٢٢-٧-٢٠٠٨م وعدد ٣٠-١١-٢٠١٥م، وعدد ٥-٥-٢٠١٥، وعدد ٢٠-٥-٢٠١٣م، وصحيفة «المصري اليوم» عدد ١-٤-٢٠٠٨م، وعدد ١٨-١٠-٢٠٠٨م، وعدد ٢٩-١٠-٢٠١٠م وعدد ٢٩-١٢-٢٠١٥، وصحيفة «المجتمع» ـ الكويت ـ عدد ٣٠-١٠-٢٠١٠م، وصحيفة «المدينة» ـ السعودية ـ عدد ٢٣-٦-٢٠١٥م. وصحيفة «المصريون» ـ القاهرة ـ عدد ٤-١٢-٢٠١٢م، وصحيفة «وطني» ـ القاهرة ـ عدد ١٩-٧-٢٠١٥م.

المصادر والمراجع:

١- أرنولد: (الدعوة إلى الإسلام) ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة ١٩٧٠م.
٢- بكر: (وارث ووارث) في (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي- طبعة القاهرة ١٩٦٥م.
٣- جايرييلي: (الإسلام في عالم البحر المتوسط).
٤- الرافعي- عبد الرحمن: (عصر إسماعيل) طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م.
٥- رودنسون: (الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية) في (تراث الإسلام)، طبعة الكويت، سنة ١٩٧٨.
٦- سيجريد هونكة: (الله ليس كذلك) ترجمة: د. غريب محمد غريب.طبعة دار الشروق. القاهرة ١٩٩٥م.
٧- (العقيدة والمعرفة) ترجمة: عمر لطفي العالم. طبعة دمشق ١٩٨٧.
٨- الطهطاوي- رفاعة: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٣م. وطبعة القاهرة ٢٠١٠م.
٩- د. عبد الرحمن بدوي: (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) ترجمة: كمال جاد الله. طبعة القاهرة ١٩٩٩م.
١٠- (دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره) ترجمة: كمال جاد الله. طبعة القاهرة ١٩٩٩م.
١١- (شخصيات قلقة في الإسلام) طبعة القاهرة ١٩٦٤م.
١٢- ماسينيون: (سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران) في (شخصيات قلقة في الإسلام) ١٩٦٤م.
١٣- محمد السماك: (الأقليات بين العروبة والإسلام) طبعة بيروت ١٩٩٠م.
١٤- د. محمد عمارة: (إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات) طبعة دار السلام- القاهرة ١٤٢١ه ٢٠١٠م. (مسلمون ثوار) طبعة دار الشروق. القاهرة ٢٠٠٦.

١٥- د. محمود قاسم: (الإمام عبد الحميد بن باديس) طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٦٥.
١٦- مكسيموس مونروند: (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب) ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم ١٨٦٥م
١٧- نيكسون: (الفرصة السانحة) ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة دار الهلال ـ القاهرة ١٩٩٢م.
١٨- هوبرت هيركومر: (صورة الإسلام في التراث الغربي) ترجمة: ثابت عيد ـ تقديم: د. محمد عمارة. طبعة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٩٩م.
١٩- دائرة المعارف الإسلامية. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٨م.

الدوريات:

(الأستاذ) ـ القاهرة.
(الأهرام) ـ القاهرة.
(أويس فرانس) ـ باريس.
(البصائر) ـ الجزائر.
(بيلد) ـ ألمانيا.
(الحياة) ـ لندن.
(الدستور) ـ القاهرة.
(الدعوة) ـ ليبيا.
(الرسالة) ـ السعودية.
(الشرق الأوسط) ـ لندن.
(المجتمع) ـ الكويت.
(المدينة) ـ السعودية.
(المصري اليوم) ـ القاهرة.
(المصريون) ـ القاهرة.
(معاريف) ـ إسرائيل.
(نيوزويك) ـ أمريكا.
(واشنطون بوست) ـ أمريكا.
(وطني) ـ القاهرة.

الفهرس